الفجر الصادق

في الرد على الفرقة الوهابية المارقة

تأليف علامة بغداد
جميل صدقي الزهاوي



تأليف علامة بغداد
جميل صدقي الزهاوي

دار الصديق الأكبر

قال في تقريظه معروف أفندي الرصافي:

هذا كتاب فيه يتضح الهدى

علناً فتسطع للعقول حقائق

يا ظلمةَ الشبهات والكذب انجلى

فلقد بدا للحق فجرٌ صادق

(مبيعه بمكتبة ملتزمه حضرة الشيخ أحمد علي المليجي
الكتبي الشهير بمصر قريباً من الجامع الأزهر المنير
طبع بمطبعة الواعظ بمصر سنة ١٣٢٣ هـ)

مقدمة الطبعة المصرية

قال ملتزم طبع هذا الكتاب أجزل الله له عليه الثواب:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أيد الحق بالبراهين والأدلة ، وأدحض الباطل وجعل حجة أهله دارسة مضمحلة ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد المؤيد بقويم الدليل ، وعلى آله وصحبه الذين أزهق الله بهداهم الأباطيل .

(وبعد) فأقول وأنا المفتقر إلى رحمة ربي أحمد بن علي المليجي الكتبي:

قد اطلعت بحمد الله تعالى على ما في هذا الكتاب ، فوجدته جامعاً من الأدلة ما راق ، ومن البراهين ما طاب ، وذلك في تأييد ماذهب إليه أهل السنة والجماعة في تفنيد أباطيل من ضل عن طريقهم فأنكر التوسل والشفاعة ، فهنيئاً لمن طالعة متدبراً لمعانيه ، واعترف بفضل مؤلفه وتمسك بما فيه .

إذ كل ما فيه نور يستضاء به ... وليس ينكره والله غير عمي

طوبى لمن بهداه نفسه ارتدعت ... عن اعتقاد يقود النفس للندم

كتاب أدحض بما حواه من الأدلة والبراهين القوية معارضة من حاد عن السنة ، وتمسك بما عن له من الأضاليل الوهمية .

كيف لا وهو تأليف نابغة هذا الزمان ، من تفرد فيه على معاصريه بحسن البيان ، رب الفضائل التي لاتضاهى ، والفواضل العديدة التي لاتتناهى ، الأستاذ الذي هو لأحاسن الكمالات حاوي ، سيدي الشيخ جميل أفندي صدقي الزهاوي .

رجل الفصاحة والبلاغة من له　　في عصره فضل على الأقران
أنعم به وبما حواه كتابه　　من خير علم نافع ومعان
فجزاه عن دين الرسول إلهه　　خير الجزاء بجنة الرضوان

هذا وإني أطلب ممن أمر العباد بدعائه ، متوسلاً إليه برسله الكرام وأنبيائه ، أن ينفع بهذا الكتاب من وقف عليه ، وعمل بما فيه ونظر بالإستحسان إليه ، وأن يكثر من أمثال مؤلفه الفاضل في جميع البقاع ، لتستنير الأمة بمعارفهم التي يحصل لها بها كمال الإنتفاع .

وأن يوفقنا لمثل هذا العمل الجليل ، ولا يحرمنا عليه الثواب الجميل والأجر الجزيل ، يوم لا ينفع مال ولا بنون ولا صديق حميم ، إلا من عمل صالحاً وأتى الله بقلب سليم .

بجاه من ختم به الرسالة ، ونظر إليه بعين العناية ، سيدنا محمد عليه صلاة الله وسلامه في البداية والنهاية .

٩ جمادى أول سنة ١٣٢٣

كتبه: أحمد علي المليجي الكتبي بمصر

ترجمة المؤلف

الزهاوي (١٢٧٩ - ١٣٥٤ هـ = ١٨٦٣ - ١٩٣٦ م)

جميل صدقي بن محمد فيضي ابن الملا أحمد بابان الزهاوي: شاعر ، ينحو منحى الفلاسفة ، من طلائع نهضة الأدب العربي في العصر الحاضر .

مولده ووفاته ببغداد . كان أبوه مفتيها ، وبيته بيت علم ووجاهة في العراق . كردي الأصل ، أجداده البابان أمراء السليمانية (شرقي كركوك) . . .

نظم الشعر بالعربية والفارسية في حداثته ، وتقلب في مناصب مختلفة فكان من أعضاء مجلس المعارف ببغداد ، ثم من أعضاء محكمة الاستئناف ، ثم أستاذاً للفلسفة الاسلامية في (المدرسة الملكية) بالآستانة ، وأستاذاً للآداب العربية في دار الفنون بها ، فأستاذاً للمجلة في مدرسة الحقوق ببغداد ، فنائباً عن المنتفق في مجلس النواب العثماني ، ثم نائباً عن بغداد ، فرئيساً للجنة تعريب القوانين في بغداد ، ثم من أعضاء مجلس الأعيان العراقي ، إلى أن توفي . كتب عن نفسه..... :

وشعره كثير يناهز عشرة آلاف بيت ، منه (ديوان الزهاوي ـ ط)

و (الكلم المنظوم – ط) و (الشذرات – ط) و (نزغات الشيطان – ط) في كتاب (الزهاوي وديوانه المفقود) لهلال ناجي ، وفيه شطحاته الشعرية ، و (رباعيات الزهاوي – خ) و (اللباب – ط) و (الأوشال – ط) ولرفائيل بطي (كتاب) في حياة الزهاوي ، سماه (فيلسوف بغداد في القرن العشرين – ط) ولناصر الحاني (محاضرات عن جميل الزهاوي ، حياته وشعره – ط) .

(الأعلام لخير الدين الزركلي:١٣٧/٢)

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أعلى الحق ونصر أصحابه ، ودحض الباطل وخذل أحزابه ، والصلاة والسلام على من أنزل تعالى عليه كتابه ، وجعله وسيلة لمن طلب غفرانه ورجا ثوابه ، وشفيعاً لمن فرط في جنبه فخاف عقابه . وعلى آله وصحبه الذين اتبعوا سننه وآدابه ، ونابوا بعده في نصر هذا الدين منابه .

(وبعد) فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: (**ستفترق أمتي ثلاثاً وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة**) فكان الأمر كما قال الصادق الأمين عليه صلوات رب العالمين، فقد افترقت هذه الأمة فرقاً شتى خالف أكثرها ما جاء به الله ورسوله ، ومرق غالبها عن سنن الدين ، وحاد عن محجة اليقين ، ولكن الفرقة الناجية هي التي اتبعت كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وثبتت على الصراط السوي والمنهج الحنيفي ، غير طائشة فيه ولا مارقة عنه . ومن آخر تلك الفرق الهالكة ، وأعداها للدين ، وأشقها لعصا المسلمين الفرقة الوهابية التي ما زالت منذ نشأتها إلى هذا اليوم ، تدأب في الغي متلاعبة في الدين ، خارجة وقتاً بعد آخر على ولاة

المسلمين ، لما تزعمه من أن من خالفها من الأمة الإسلامية واقع في شرك الشرك ! يجب عليها بزعمها الفاسد ومعتقدها الباطل ، قتاله حتى يؤوب إلى بدعتها .

وهي كلما بغت ردت الدولة المؤيدة كيدها في نحرها، وأطفأت شرر شرها ، وها هي اليوم قد رفعت راية عصيانها، وتجاهرت بوخيم عدوانها، حتى أرسلت الدولة العلية ، أيدها رب البرية ، كتيبة خضراء من مؤيدي عساكرها ، تدميراً لجماعة تلك الفئة الباغية ، وقطعاً لدابرها .

وقد هممت مستعيناً بالله تعالى ومستمداً من روحانية نبيه الأكرم أن أكتب في رسالتي هذه ما يكفل رد شبهها الباطلة، ويضمن دفع اعتراضاتها الواهية ، ويكشف زيف عقائدها الزائغة ، فيفتر عن بطلان دعاويها الفارغة ، بإيراد حجج بالغة ، وبسط دلائل دامغة ، تبييناً لجهالتها ، وكشفاً لعورتها ، لكي يحذرها المسلمون ، ولا يقع في حبالة إغوائها الجاهلون .....

سنذكر إن شاء الله تعالى فيما سنكتبه من المباحث نشأة هذه الفرقة المارقة وخلاصة ما تمذهبت به وأدخلته في الدين ، من الأباطيل التي ما أنزل الله بها من سلطان ، ولم يقم عليها دليل ولا برهان . مع الرد عليها بما يدحض فاسد حجتها ، ويبين اعوجاج محجتها .

فقد نشأ اليوم في بغداد بعض المؤيدين لها من الذين أضلهم الله تعالى حتى استحبوا العمى، واشتروا الضلالة بالهدى ! جاعلين تأييدهم ذلك المذهب الباطل والرأي العاطل ذريعة للرياسة على قوم كالأنعام بل هم أضل سبيلا ! وقد رمى الله تعالى هؤلاء المؤيدين لها بصنوف العاهات ، وأنواع الشناعات ، وفضحهم بالخزي في الدنيا قبل الآخرة ليكونوا عبرة للمعتبرين، وتبصرة للمتفكرين ، ولا غرو فإن من يمرق عن الجماعة نابذاً وراءه طاعة خليفة الله تعالى في أرضه ، ويمس أحكام دين الله المبين وشريعة رسوله الأمين بيد التحريف والتغيير ، لجدير أن تحل عليه الرزايا وتحيط به البلايا ، ويصبح مثلةً للأقوام ، وضحكة للأنام، بما يصمه الله تعالى به من الخزي الشنيع، ويسمه به من العار الفظيع ، عدا ما أعده الله تعالى له من خزي الآخرة

وعذابها الأليم . ولعذاب الآخرة أشد وأبقى .

الوهابية ومنشأها

الوهابية فرقة منسوبة إلى محمد بن عبد الوهاب ، وابتداء ظهور محمد هذا كان سنة ١١٤٣ ، وإنما اشتهر أمره بعد الخمسين ، فأظهر عقيدته الزائغة في نجد ، وساعده على إظهارها محمد بن سعود أمير الدرعية ، بلاد مسيلمة الكذاب ، مجبراً أهلها على متابعة ابن عبد الوهاب هذا فتابعوه ! وما زال ينخدع له في هذا الأمر حي بعد حي من أحياء العرب ، حتى عمت فتنته وكبرت شهرته ، واستفحل أمره فخافته البادية !

وكان يقول للناس ما أدعوكم إلا إلى التوحيد وترك الشرك بالله تعالى في عبادته ، وكانوا يمشون خلفه حيثما مشى حتى اتسع له الملك .

أما ولادته فقد كانت سنة ١١١١ وتوفي سنة ١٢٠٧ وكان في ابتداء أمره من طلبة العلم ، يتردد على مكة والمدينة لأخذه عن علمائهما ، وممن أخذ عنه في المدينة الشيخ محمد بن سليمان الكردي ، والشيخ محمد حياة السندي ، وكان الشيخان المذكوران وغيرهما من المشايخ الذين أخذ عنهم يتفرسون فيه الغواية والإلحاد ، ويقولون سيضل الله تعالى هذا ويضل به من أشقاه من

عباده ، فكان الأمر كذلك ! وكذا كان أبوه عبد الوهاب وهو من العلماء الصالحين يتفرس فيه الإلحاد ويحذر الناس منه ، وكذلك أخوه الشيخ سليمان حتى أنه ألف كتاباً في الرد على ما أحدثه من البدع والعقائد الزائغة .

وكان محمد هذا بادئ بدئه كما ذكره بعض كبار المؤلفين مولعاً بمطالعة أخبار من ادعى النبوة كاذباً كمسيلمة الكذاب وسجاح والأسود العنسي وطليحة الأسدي وأضرابهم ، فكان يضمر في نفسه دعوى النبوة ، إلا أنه لم يتمكن من إظهارها ، وكان يسمي جماعته من أهل بلده الأنصار،ويسمي متابعيه من الخارج المهاجرين!

وكان يأمر من حج حجة الإسلام قبل اتباعه ، أن يحج ثانية قائلاً: إن حجتك الأولى غير مقبولة ، لأنك حججتها وأنت مشرك !

ويقول لمن أراد أن يدخل في دينه: إشهد على نفسك أنك كنت كافراً، واشهد على والديك أنهما ماتا كافرين، واشهد على فلان وفلان ، ويسمي له جماعة من أكابر العلماء الماضين أنهم كانوا كفاراً !

فإن شهد بذلك قبله وإلا أمر بقتله !

وكان يصرح بتكفير الأمة منذ ستمائة سنة، ويكفر كل من لايتبعه وإن كان من أتقى المسلمين ويسميهم مشركين ! ويستحل دماءهم وأموالهم ! ويثبت الإيمان لمن اتبعه وإن كان من أفسق الناس .

وكان عليه ما يستحق من الله ينتقص النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً بعبارات مختلفة منها قوله فيه أنه (طارش) وهو في لغة العامة بمعنى الشخص الذي يرسله أحد إلى غيره، والعوام لا يستعملون هذه الكلمة فيمن به حرمة عندهم.

ومنها قوله: إني نظرت في قصة الحديبية فوجدت فيها كذا وكذا من الكذب! إلى غير ذلك من الألفاظ الإستخفافية، حتى أن بعض أتباعه يقول بحضرته: إن عصاي هذه خير من محمد، لأني أنتفع بها ومحمد قد مات، فلم يبق فيه نفع! وهو يرضى بكلامه.

وهذا كما تعلم كفر في المذاهب الأربعة.

ومنها: أنه كان يكره الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وينهى عن ذكرها ليلة الجمعة، وعن الجهر بها على المنابر، ويعاقب من يفعل ذلك عقاباً شديداً، حتى أنه قتل رجلاً أعمى مؤذناً لم ينته عما أمره بتركه من ذكر الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم بعد الأذان!

ويلبس على أتباعه قائلاً إن ذلك كله محافظة على التوحيد!

وكان قد أحرق كثيراً من كتب الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، كدلائل الخيرات وغيرها، وكذلك أحرق كثيراً من كتب الفقه والتفسير والحديث، مما هو مخالف لأباطيله، وكان يأذن لكل من تبعه أن يفسر القرآن بحسب فهمه.

وتمسك ابن عبد الوهاب في تكفير الناس بآيات نزلت في المشركين فحملها على الموحدين! وقد روى البخاري في صحيحه عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما ، في وصف الخوارج: أنهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها في المؤمنين ! وفي رواية أخرى عن ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم قال (أخوف **ما أخاف على أمتي رجل متأول للقرآن يضعه في غير موضعه)** فهذا وما قبله صادق على ابن عبد الوهاب وأتباعه .

ويظهر من أقواله وأفعاله أنه كان يدعي أن ما أتى به دين جديد ، ولذلك لم يقبل من دين النبي صلى الله عليه وسلم إلا القرآن ! وقبوله إياه إنما كان ظاهراً فقط ، كيلا يعلم الناس حقيقة أمره !

والدليل على ذلك أنه هو وأتباعه كانوا يؤولون القرآن بحسب أهوائهم ، لا بحسب ما فسره النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، والسلف الصالح وأئمة التفسير .

وما كان يقول بأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم ، وأقاويل الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين ، ولا بما استنبطه الأئمة من الكتاب والسنة ، ولا يأخذ بالإجماع ولا القياس الصحيح ، وكان يدعي الانتساب إلى مذهب الإمام أحمد كذباً وتستراً ، وقد رد عليه أضاليله كثير من علماء الحنابلة ، وألفوا في ذلك رسائل

عديدة ، حتى أخوه الشيخ سليمان بن عبد الوهاب ألف رسالة في الرد عليه كما ذكرناه .

وكان يقول لعماله: اجتهدوا بحسب نظركم واحكموا بما ترونه مناسباً للدين، ولا تلتفتوا لهذه الكتب المتداولة، فإن فيها الحق والباطل !

وقتل كثيراً من العلماء والصالحين ، لأنهم لم يوافقوه على ما ابتدعه .

قال العلامة السيد العلوي الحداد: إن المحقق عندنا من أقواله وأفعاله ما يوجب خروجه عن القواعد الإسلامية ، لما أنه يستحل أموراً مجمعاً على تحريمها ، معلومة من الدين بالضرورة بلا تأويل سائغ ، وهو مع ذلك ينتقص الأنبياء والمرسلين ، والأولياء والصالحين ! وانتقاصهم عمداً كفر بالإجماع عند الأئمة الأربعة .

ثم إنه صنف لابن سعود رسالة سماها (كشف الشبهات عن خالق الأرض والسماوات) كفَّر فيها جميع المسلمين، وزعم أن الناس كفار منذ ستمائة سنة ، وحمل الآيات التي نزلت في الكفار من قريش على أتقياء الأمة ، واتخذ ابن سعود ما يقوله وسيلة لاتساع الملك وانقياد الأعراب له ، فصار ابن عبد الوهاب يدعو الناس إلى الدين ، ويثبت في قلوبهم أن جميع من هو تحت السماء

مشرك بلا مراء ، ومن قتل مشركاً فقد وجبت له الجنة .

وكان ابن سعود يمتثل كلما يأمره به ، فإذا أمره بقتل إنسان أو أخذ ماله سارع إلى ذلك ، فكان ابن عبد الوهاب في قومه كالنبي في أمته ! لا يتركون شيئاً مما يقوله ولا يفعلون شيئاً إلا بأمره، ويعظمونه غاية التعظيم ، ويبجلونه غاية التبجيل ، وما زالت أحياء العرب وقبائلها تطيعه حتى اتسع بذلك ملك ابن سعود وملك أولاده بعده،وحاربه الشريف غالب رحمه الله خمس عشرة سنة، حتى عجز عن حربه ، ولم يبق أحد إلا صار من حزبه ، ودخل مكة بالصلح سنة ألف ومائتين وعشرين، واستمر فيها سبع سنين ، إلى أن جهزت الدولة العلية عساكرها المنصورة عليه ، ووجهت الأمر إلى وزيرها المفخم محمد علي باشا صاحب مصر ، فأتاه بجيوش باسلة ، وطهر الأرض منه ومن أتباعه ، ثم جهز ابنه إبراهيم باشا ، فوصل بجيوشه إلى الدرعية سنة ١٢٣٣ فأفنى وأباد من بقي منهم .

ومن قبائح ابن عبد الوهاب الشنيعة: أنه منع الناس من زيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، فبعد منعه خرج أناس من الأحساء وزاروه صلى الله عليه وسلم ، فلما رجعوا مروا على ابن عبد الوهاب في الدرعية ، فأمر بحلق لحاهم وأركبهم مقلوبين إلى الأحساء .

قد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن هؤلاء الخوارج في أحاديث كثيرة ، فكانت من أعلام نبوته عليه الصلاة والسلام ، لأن فيها إخباراً بالغيب .

فمنها قوله عليه الصلاة والسلام: (الفتنة من هاهنا الفتنة من هاهنا) وأشار إلى المشرق . وقوله صلى الله عليه وسلم: (يخرج ناس من قبل المشرق يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية لا يعودون فيه حتى يعود السهم إلى فوقه(يعني موضع الوتر)سيماهم التحليق)

وفي رواية زيادة على ذلك: هم شر الخليقة طوبى لمن قتلهم أوقتلوه يدعون إلى كتاب الله وليسوا منه في شئ.

وقوله صلى الله عليه وسلم: (اللهم بارك لنا في شامنا اللهم بارك لنا في يمننا قالوا يا رسول الله وفي نجدنا ؟ قال: هناك الزلازل والفتن ، وبها يطلع قرن الشيطان !

وقوله عليه الصلاة والسلام: (يخرج ناس من المشرق يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم ، كلما قطع قرن نشأ قرن حتى يكون آخرهم مع المسيح الدجال سيماهم التحليق) .

وفي قوله عليه الصلاة والسلام (سيماهم التحليق) تنصيص على هؤلاء القوم الخارجين من المشرق ، التابعين لمحمد بن عبد الوهاب فيما ابتدعه، لأنهم كانوا يأمرون من اتبعهم أن يحلق رأسه،

ولا يتركونه إذا تبعهم حتى يحلقوا رأسه ، ولم يقع مثل ذلك من إحدى الفرق الضالة التي مضت قبلهم .

وكان ابن عبد الوهاب يأمر بحلق رؤس النساء أيضاً ممن اتبعنه ! وفي مرة أمر امرأة دخلت في دينه أن تحلق رأسها فقالت له: لو أمرت بحلق اللحى للرجال لساغ أن تأمر بحلق رؤس النساء ، فإن شعر الرأس للنساء بمنزلة اللحية للرجال ، فلم يجد لها جواباً !

ومن الأحاديث قوله صلى الله عليه وسلم: (يخرج في آخر الزمان في بلد مسيلمة رجل يغير دين الإسلام) وقوله عليه الصلاة والسلام: (سيظهر من نجد شيطان تتزلزل جزيرة العرب من فتنته) إلى غير ذلك من الأحاديث .

ومن قبائح ابن عبد الوهاب: إحراقه كثيراً من كتب العلم ، وقتله كثيراً من العلماء وخواص الناس وعوامهم ، واستباحة دمائهم وأموالهم !

ونبشه لقبور الأولياء ! وقد أمر في الأحساء أن تجعل بعض قبورهم محلاً لقضاء الحاجة! ومنع الناس من قراءة دلائل الخيرات، ومن الرواتب والأذكار ، ومن قراءة المولد الشريف ، ومن الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام في المنائر بعد الأذان ، وقتل من فعل ذلك ومنع الدعاء بعد الصلاة !

وكان يصرح بكفر المتوسل بالأنبياء، والملائكة والأولياء ويزعم أن من قال لأحد: مولانا أو سيدنا ، فهو كافر !

ومن أعظم قبائح الوهابية أتباع ابن عبد الوهاب: قتلهم الناس حين دخلوا الطائف قتلاً عاماً حتى استأصلوا الكبير والصغير، وأودوا بالمأمور والأمير ، والشريف والوضيع، وصاروا يذبحون على صدر الأم طفلها الرضيع !! ووجدوا جماعة يتدارسون القرآن فقتلوهم عن آخرهم ، ولما أبادوا من في البيوت جميعاً خرجوا إلى الحوانيت والمساجد وقتلوا من فيها ، وقتلوا الرجل في المسجد وهو راكع أو ساجد ، حتى أفنوا المسلمين في ذلك البلد، ولم يبق فيه إلا قدر نيف وعشرين رجلاً ، تمنعوا في بيت الفتني بالرصاص أن يصلوهم، وجماعة في بيت الفعر قدر المائتين وسبعين ، قاتلوهم يومهم ، ثم قاتلوهم في اليوم الثاني والثالث، حتى راسلوهم بالأمان مكراً وخديعة فلما دخلوا عليهم وأخذوا منهم السلاح قتلوهم جميعاً ، وأخرجوا غيرهم أيضاً بالأمان ، والعهود إلى وادي (وجّ) وتركوهم هنالك في البرد والثلج ، حفاة عراة مكشوفي السوآت ، هم ونساؤهم من مخدرات المسلمين !

ونهبوا الأموال والنقود والأثاث ، وطرحوا الكتب على البطاح ، وفي الأزقة والأسواق تعصف بها الرياح ، وكان فيها كثير من

المصاحف ومن نسخ البخاري ومسلم ، وبقية كتب الحديث والفقه وغير ذلك، تبلغ ألوفاً مؤلفة ، فمكثت هذه الكتب أياما وهم يطؤونها بأرجلهم ، ولا يستطيع أحد أن يرفع
منها ورقة ! ثم أخربوا البيوت وجعلوها قاعاً صفصفاً ! وكان ذلك سنة ١٢١٧.

○ ○

الوهابية وحديث بغيها

إن زعيم الوهابية اليوم هو عبد الرحمن بن فيصل ، من أولاد محمد بن سعود ، الباغي الذي حاد عن طاعة الخلافة العظمى الإسلامية سنة ١٢٠٥ واستمرت له وقائع مع الشريف غالب إلى سنة ١٢٢٠ ، حتى إذا عجز الشريف عن حربه جهزت الدولة العلية عليه عساكرها ، وناطت الأمر بوزيرها المرحوم محمد علي باشا صاحب مصر ، وولده المرحوم إبراهيم باشا فأبادهم سنة١٢٣٣ كما ألمعنا إليه في مقالتنا السابقة ، مما هو مسطور في كتب التاريخ .

وعبدالرحمن هذا كان قبل ثلاثين سنة تقريباً أميراً على الرياض ، فلما استولى عليها المرحوم أمير نجد محمد بن الرشيد ، هرب عبد الرحمن بن سعود إلى بعض السواحل البحرية ، وأخيراً التجأ إلى الكويت ، وبقي هناك يعيش في فقر مدقع لايرحمه أحد ، إلى أن عطفت عليه الدولة العلية ، وأجرت له جراية أزالت ما كان فيه من الفقر ، وصار يعيش في أرغد عيش على نفقتها في تلك الديار .

ولما توفي محمد بن الرشيد رحمه الله ، وتأمر مكانه ابن أخيه أمير نجد الحالي عبد العزيز بن متعب بن الرشيد ، اتفق أن حدثت واقعة بين عبد العزيز المشار إليه وبين شيخ الكويت مبارك بن صباح ،

وذلك أن مباركاً المذكور كان قد قتل أخاه محمد بن صباح ، الذي كان حينئذ قائم مقام من قبل الدولة العلية في الكويت ، وقتل أخاً له آخر أيضاً ، وغصب أموالاً طائلة من أولادهما ، الذين فروا من عقابه .

ثم إن خال أولئك الأولاد وهو يوسف بن إبراهيم ، التجأ إلى الأمير عبد العزيز بن الرشيد منتصراً بحضرته على مبارك المذكور ، لكي يسترد منه ما اغتصبه من أموال ولد أخته ، فجرت بينه وبين ابن صباح في ذلك مخابرات آلت أخيراً إلى أن جهز كل من الطرفين جيشاً على الآخر ، فتصادما في موقع يقال له الطرفية ، فكانت الدائرة على ابن صباح ، فقتل من جيشه زهاء أربعة آلاف مقاتل . أما مبارك فقد نجا هارباً بنفسه إلى الكويت ، خاسئاً مدحوراً.

ولم تمض مدة الى أن تمرد ابن صباح محتمياً ببعض الأجانب ! فساعدوه بالمال وبالسلاح ، فأخذ يقوى عبد الرحمن المذكور على الأمير ابن الرشيد واتفق أن كان الأمير ابن الرشيد إذ ذاك مشغولاً ببعض الغزوات في أماكن بعيدة عن الرياض ، فانتهزها ابن صباح فرصة ، فجهز جيشاً تحت إمرة عبد العزيز بن عبد الرحمن المذكور ، وأرسله إلى الرياض للاستيلاء عليها فاحتلها عنوة ،

وحصنها وأحكم سورها !

فلما بلغ الخبر الأمير ابن الرشيد عاد إليها فحاصرها ملياً، لأجل استرجاعها حتى امتد حصارها سنة ، ثم حدث له في بعض قبائله البعيدة ما صرفه عن حصارها فتركها !

وانتهز ابن سعود هذه الحادثة فرصة أيضاً ، فأخرج من الرياض جيشاً مجهزاً بسلاح الأجانب ، فاستولى به على عنيزة وبريدة وما يليهما من بلاد القصيم !

ولما رأت الدولة العلية اعتداء عبد الرحمن هذا ، وبغيه وتطاوله على صادقها ومخلصها الأمير بن الرشيد ، ونزوع عبد الرحمن إلى الأجانب أرسلت كتيبة من عساكرها المنصورة صحبة الأمير ابن الرشيد ، لقطع دابر أولئك المارقين وقمع بغيهم واعتدائهم ، وإطفاء شرر فتنتهم المستطير ، فصادمت العساكر المنصورة الجماعة الباغية حزب ابن سعود ، قرب بلد البكرية من بلاد القصيم ، فوقعت بين الجمعين ملحمة كبرى ، انجلت عن هزيمة الفئة الباغية جماعة ابن سعود ، وامتلاك العساكر أحد عشر راية من راياتهم . وقد كان والحق يقال لحضرة الأمير ابن الرشيد وجيشه في هذه الملحمة خدمة في قمع الأعداء تشكر ، وبسالة يخلد ذكرها ولا تنكر .

وأما المنهزمون فهم اليوم متحصنون ببعض تلك البلاد ، والعساكر

المنصورة مع جيوش الأمير ابن الرشيد محدقون بهم ، ومجدون في تنكيلهم وكبح جماحهم ، وفقهم الله تعالى لذلك .

○ ○

عقيدة الوهابية

لما رأى ابن عبد الوهاب أن قاطني بلاد نجد بعيدون عن عالم الحضارة ، لم يزالوا على البساطة والسذاجة في الفطرة ، قد ساد عليهم الجهل ، حتى لم يبق للعلوم العقلية عندهم مكانة ولا رواج ، وجد هنالك من قلوبهم ما هو صالح لأن يزرع فيه بذور الفساد ، مما كانت نفسه تنزع إليه وتمنيه به من قديم الزمان ، وهو الحصول على رياسة عظيمة ينالها باسم الدين ، إذ كان لحاه الله يعتقد أن النبوات لم تكن إلا رياسة وصل إليها دهاة البشر حين ساعدتهم الظروف عليها بين ظهراني قوم جاهلين ليس لهم من العلم نصيب .

وحيث أن الله تعالى قد أرتج باب النبوة بعد خاتم الأنبياء سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، لم يجد للحصول على أمنيته طريقاً بين أولئك الأنعام إلا أن يدعي أنه مجدد في الدين مجتهد في أحكامه ، فحمله هذا الأمر أن كفَّر جميع طوائف المسلمين وجعلهم مشركين ، بل أسوأ حالاً وأشد كفراً وضلالاً ! فعمد إلى الآيات القرآنية النازلة في المشركين فجعلها عامة شاملة لجميع المسلمين الذين يزورون قبر نبيهم صلى الله عليه وسلم ، ويستشفعون به إلى ربهم ! نابذاً وراء ظهره كل ما خالف أمانيه الباطلة ، وسولته له نفسه الأمارة بالسوء من أحاديث سيد المرسلين،

وأقوال أئمة الدين والمجتهدين، حتى أنه لما رأى الإجماع مصادماً لما ابتدعه أنكره من أصله وقال: لا أرى للناس بعد كتاب الله الذي جمع فأوعى كل رطب ويابس !

وتغافل عما جاء به كتاب الله من قوله تعالى: (ومن يتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيرا)

على أنه لم يأخذ من كتاب الله إلا ما نزل في المشركين من الآيات ، فأولها ظلماً منه وتجاسراً على الله، تأويلاً يسهل له الحصول على أمنيته، ذلك بأن حملها على المسلمين فكفرهم منذ ستمائة عام وهدر دماءهم وأباح أموالهم ، وجعل بلادهم بلاد حرب ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم في حديث جبريل كما في الصحيحين: (الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله) الحديث.

وفي الصحيحين من حديث عمر: (بني الإسلام على خمس شهادة أن لاإله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله) الحديث.

وقوله صلى الله عليه وسلم لوفد عبد القيس: (آمركم بالإيمان بالله وحده أتدرون ما الإيمان بالله وحده شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله) الحديث كما في الصحيحين .

وقوله صلى الله عليه وسلم: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا

لا إله إلا الله) الحديث . وقوله صلى الله عليه وسلم: (كفوا عن أهل لا إله إلا الله).

لكن ابن عبد الوهاب ومن تابعه ، خالفوا هذه الأحاديث وكفَّروا كل من قال لا إله إلا الله محمد رسول الله ، ممن لم يكن على شاكلتهم ، زعماً منهم أن من قالها وهو يتوسل بنبي أو يدعو غائباً أو ميتاً ، أو ينذر له كان كأنه اعتقد خلافها ، وما مأربه في ذلك إلا ترويج مدعاه الكاسد ! ونحن سنبين فيما يأتي إن شاء الله تعالى بطلانه ، ونظهر للقارئ زيفه .

ومن عجيب أمره أنه يموِّه على الناس بدعوى توحيد الله وتنزيهه، قائلاً : إن التوسل بغير الله شرك ، مع أنه يفصح عن استواء الله تعالى على العرش بمثل الجلوس عليه ، ويثبت له اليد والوجه والجهة ، ويقول بصحة الإشارة إليه في السماء ، ويدعي أن نزوله إلى السماء الدنيا حقيقي ، فيجسمه تعالى عما يقول الظالمون علوا كبيراً .

فأين تنزيه الله تعالى ، بعد جعله سبحانه جسما يشترك فيه معه حتى أخس الجمادات ، وفي ذلك من النقص والإزراء بألوهيته سبحانه ، ما هو منزه عنه .

ومن عظيم سفهه أنه لما رأى العقل مخالفاً لجميع ما يدعيه ، خلع الحياء فعطل العقل ولم يحكِّمه في شئ ، وتصدى إلى جعل الناس

كالبهائم في أمورهم الدينية ، وحظر عليهم استعمال العقل فيها ، مع أنه لا منافاة بين العقل والدين ، بل كلما ارتقت العقول في مدارج الكمال ظهرت لها مزايا الدين وتجلت محاسنه ، وهل ترى في هذا العصر عصر ارتقاء العقل أشنع من جعله محقراً بوضع الحجر عليه ، على أن مدار الدين والتكليف بأحكامه ، ليس إلا على العقل الذي سقط التكليف عمن عدمه ، وقد خاطب الله تعالى عباده في مواضع كثيرة من كتابه العزيز بقوله (يا أولي الألباب تنبيهاً على أن معرفة حقائق الدين إنما هي من شأن أولي العقول .

○ ○

بيان بطلان مذهب المارقة الوهابية

قد آن لنا أن نذكر ههنا خلاصة ما تمذهبت به الفرقة المارقة الوهابية من الأباطيل ، ثم نتكلم عليها في المباحث الآتية بما يردها ويدحض حجتها فنقول: قد اشتملت عقيدتهم الباطلة على أمور:

(الأول) إثبات الوجه واليد والجهة للباري سبحانه وجعله جسماً ينزل ويصعد .

(الثاني) تقديم النقل على العقل وعدم جواز الرجوع إليه في الأمور الدينية .

(الثالث) نفي الإجماع وإنكاره .

(الرابع) نفي القياس .

(الخامس) عدم جواز التقليد للمجتهدين من أئمة الدين وتكفير من قلدهم .

(السادس) تكفيرهم لكل من خالفهم من المسلمين .

(السابع) النهي عن التوسل إلى الله تعالى بالرسول أو بغيره من الأولياء والصالحين .

(الثامن) تحريم زيارة قبور الأنبياء والصالحين .

(التاسع) تكفير من حلف بغير الله وعده مشركاً .

(العاشر) تكفير من نذر لغير الله أو ذبح عند مراقد الأنبياء والصالحين .

ο ο

تجسيم الوهابية

إن الوهابية التي كفرت من زار قبر رسول الله صلى الله عليه وسلم متوسلاً به إلى الله تعالى ، وعدَّت ذلك شركاً في ألوهيته ، وقالت بوجوب تنزيهه تعالى عن ذلك ، قد خبطت كل الخبط في تنزيهه تعالى ، حيث أبت إلا جعل استوائه سبحانه ثبوتاً على عرشه واستقراراً وعلواً فوقه ، وأثبتت له الوجه واليدين ، وبعضته سبحانه ، فجعلته ماسكاً بالسماوات على إصبع والأرض على إصبع والشجر على إصبع ، والملك على إصبع !

ثم أثبتت له تعالى الجهة ، فقالت هو فوق السماوات ثابت على العرش يشار إليه بالأصابع إلى فوق إشارة حسية وينزل إلى السماء الدنيا ويصعد ، حتى قال بعضهم:

لئن كان تجسيماً ثبوت استوائه	على عرشه إني إذا لمجسم
وإن كان تشبيها ثبوت صفاته	فعن ذلك التشبيه لا أتلعثم
وإن كان تنزيها جحود استوائه	وأوصافه أو كونه يتكلم
فمن ذلك التنزيه نزهت ربنا	بتوفيقه والله أعلى وأعلم

نحن ننقل لك هاهنا بعض عباراتهم التي وردت في هذا الشأن مسطورة في كتاب (الدين الخالص) قال صاحبه:

إن أردتم بالجسم المركب من المادة والصورة أو المركب من الجواهر الفردة ، فهذا منفي عن الله تعالى قطعاً ، والصواب نفيه عن الممكنات أيضاً فليس الجسم المخلوق مركباً من هذه .

فأقول: أنظر إلى ما في هذه العبارة من الخبط، فإنه أنكر فيها وجود جسم بالمعنى الذي ذكره سواء كان واجباً أو ممكناً .

والظاهر أن غرضه من هذا الإنكار هو التوصل إلى نفي الجسمية التي تلزم من معتقده في الله تعالى ، فلئلا يقال: إنه شبه الخالق بمخلوقه ، نفى الجسمية بالمعنى المذكور عن مخلوقه أيضاً . وأنت تعرف أن الجسم إن لم يكن مركبا من المادة والصورة ، فلا محيص أن يكون مركباً من الجواهر الفردة، ولكن الجهل ليس له حد ينتهي إليه، فلا غرو إن وصل به إلى هذا الخبط الشنيع ، فليته بيَّن بعد نفيه تركيب الجسم مما ذكر من أي شئ تتركب الأجسام، ولا أعتقد أنه يذهب به طيشه أن يقول بتركبها من أجزاء تتجزى، إلى غير النهاية فإن ذلك مما أنكره علماء الكلام قاطبة، ونفته العلوم الحاضرة، وقامت البراهين على بطلانه.

ولولا أن في ذكرها خروجا عن الصدد لبسطناها .

ثم قال : وإن أردتم بالجسم ما يوصف بالصفات ويرى بالأبصار ويتكلم ويكلم ويسمع ويبصرويرضى ويغضب، فهذه المعاني ثابتة

للرب تعالى وهو موصوف بها فلا ننفيها عنه بتسميتكم الموصوف بها جسماً .. إلى آخر ما قال .

فأقول: لم نعرف أحداً عرف الجسم بأنه المتكلم المكلم السميع البصير الذي يرضى ويغضب ، وإنما هذه صفات تقوم بالحي العاقل .

نعم إن الجسم يرى بالأبصار كما قال ، ولكن إثباته الجسم له تعالى بهذا المعنى تنزيل له سبحانه منزلة مخلوقاته ، مما ينافي الألوهية ! فإن كون الله تعالى جسماً بهذا المعنى نقص يجب تنزيهه عنه .

أما عقلاً ، فلأن الرؤية كما تحقق في علم البصر إنما تتم بوقوع أشعة النور على سطح المرئي وانعكاسها عنه إلى البصر ، فيلزم منه كون المرئي ذا سطح وذلك يستدعي تركبه من أجزاء ! وهو ينافي الألوهية ، لأن الجسم بهذا المعنى عين الجسم الذي نفاه أولاً عنه تعالى، بل حتى عن الممكن .

وأما نقلاً ، فلقوله تعالى (**لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار**) ولا تعارض هذه الآية بقوله تعالى (**وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة**) لأن كيفية رؤيته تعالى يوم القيامة مجهولة ، كما هو معتقد أهل الحق ، فيمكن أن تكون الرؤية يومئذ بنوع من الانكشاف

والتجلي ، من غير حاجة للباصرة ولا محاذاة لها . ويدل على ذلك قوله: وجوه ولم يقل عيون . وفي قوله ناضرة ، ما يفصح عن حصول السرور التام لها بذلك الانكشاف .

ثم قال: وإن أردتم بالجسم ما يشار إليه إشارة حسية فقد أشار أعرف الخلق بالله تعالى إليه بإصبعه رافعا لها إلى السماء. الخ.

فأقول: إن بداهة العقل حاكمة بأن المشار إليه بالإشارة الحسية ، لا بد أن يكون في جهة ومكان ، وأن يكون مرئياً ! وكل ذلك مستحيل على الله تعالى لأنه تعالى لو كان في مكان جهة ، لزم قدم المكان أو الجهة !

وقد قام البرهان على أن لا قديم سوى الله تعالى .

وأيضاً لو كان في مكان لكان محتاجاً إلى مكانه ، وهو ينافي الوجوب! وأيضاً لو كان في مكان ، فإما أن يكون في بعض الأحيان أو في جميعها .

أما بطلان الأول فلأن الأحيان متساوية في أنفسها ، وكذلك نسبته إليها متساوية ، فيكون اختصاصه ببعضها ترجيحاً بلا مرجح، إن لم يكن هناك مخصص خارجي، أو يلزم احتياجه في تحيزه إلى الغير، إن كان هناك مخصص خارجي . وأما بطلان الثاني فلأنه يلزم منه تداخل المتحيزين في الأماكن ، التي هي مشغولة بالأجسام ، وذلك محال .

وأيضاً : لو جاز أن يشار إليه بالإشارة الحسية لجاز أن يشار إليه من كل نقطة من سطح الأرض ، وحيث أن الأرض كروية يلزم أن يكون سبحانه محيطاً بها من جميع الجهات ، وإلا ما صحت الإشارة إليه ، ولما كان تعالى مستوياً على عرشه ومستقراً عليه كما تزعمه الوهابية كان عرشه محيطاً بالسماوات السبع ، فيلزم من نزوله إلى السماء الدنيا وصعوده منها، كما تقوله الوهابية ، أن يصغر جسمه تعالى عند النزول ويكبر عند الصعود ، فيكون متغيراً من حال إلى حال ! تعالى الله عما يقول الجاهلون !

وأما ما تمسكت به الوهابية من النقول التي تثبت الإشارة إليه تعالى ، فهي ظواهر ظنية ، لا تعارض اليقينيات ، فتؤول إما إجمالاً ويفوض تفصيلها إلى الله كما عليه أكثر السلف ، وإما تفصيلاً كما هو رأي الكثيرين .

فما ورد من الإشارة إليه في السماء محمول على أنه تعالى خالق السماء أو أن السماء مظهر قدرته ، لما اشتملت عليه من العوالم العظيمة التي لم تكن أرضنا الحقيرة إلا ذرة بالنسبة إليها .

وكذلك العروج إليه تعالى هو بمعنى العروج إلى موضع يتقرب إليه بالطاعات فيه ، إلى غير ذلك من التأويلات .

○ ○

الوهابية ونبذها للعقل

لما كان صريح العقل وصحيح النظر مصادماً كل المصادمة لما اعتقدته الوهابية ، اضطروا إلى نبذهم العقل جانباً وأخذهم بظواهر النقل فقط ، وإن نتج منه المحال ، ونجم عنه الغي والضلال !

فاعتقدوا متمسكين بظواهر الآيات أن الله تعالى ثبت على عرشه وعلاه علواً حقيقياً ، وأن له تعالى وجهاً ويدين ، وأنه ينزل إلى السماء الدنيا ويصعد نزولاً وصعوداً حقيقيين ! وأنه يشار إليه في السماء إشارة حسية بالإصبع !!

إلى غير ذلك مما يؤول إلى التجسيم البحت ! تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً .

فالوهابية التي تسمي زائري القبور عباد الأوثان ، إنما هي قد عبدت الوثن حيث إنها جعلت معبودها جسماً كالحيوان جالساً على عرشه، ينزل ويصعد نزولاً وصعوداً حقيقيين ، وله وجه ويد ورجل وأصابع حقيقية ، مما يتنزه عنه المعبود الحق !

وإذا رُد عليهم بالبراهين العقلية وأُثبت لهم أن ذلك مناف للألوهية عند العقل ، قالوا في الجواب: لا مجال للعقل الحقير البشري في مثل هذه الأمور التي طورها فوق طور العقل ! فأشبهوا

في ذلك النصارى في دعوى التثليث فإنك إذا سألتهم قائلاً: كيف يكون الثلاثة واحداً والواحد ثلاثة ؟ قالوا : إن معرفة هذا فوق طور العقل ، ولا يجوز إعمال الفكر في ذلك !

لا ريب أنه إذا تعارض العقل والنقل أول النقل العقل ، إذ لا يمكن حينئذ الحكم بثبوت مقتضى كل منهما ، لما يلزم عنه من اجتماع النقيضين ، ولا بانتفاء ذلك ، لاستلزامه ارتفاع النقيضين .

لكن بقي أن يقدم النقل على العقل أو العقل على النقل، والأول باطل لأنه إبطال للأصل بالفرع !

وإيضاحه: أن النقل لا يمكن إثباته إلا بالعقل ، وذلك لأن إثبات الصانع ومعرفة النبوة وسائر ما يتوقف صحة النقل عليه ، لا يتم إلا بطريق العقل ، فهو أصل للنقل الذي تتوقف صحته عليه ، فإذا قدم على العقل وحكم بثبوت مقتضاه وحده ، فقد أبطل الأصل بالفرع ! ويلزم منه إبطال الفرع أيضاً !

إذ تكون حينئذ صحة النقل متفرعة على حكم العقل ، الذي يجوز فساده وبطلانه ، فلا يقطع بصحة النقل !

فلزم من تصحيح النقل بتقديمه على العقل عدم صحته، وإذا كان تصحيح الشئ منجراً إلى إفساده كان مناقضاً لنفسه فكان باطلاً !

فإذا لم يكن تقديم النقل على العقل بالدليل السابق ، فقد تعين تقديم العقل على النقل وهو المطلوب .

إذا علمت هذا تبين لك جلياً وجوب تأويل ما عارض ظاهره العقل من الآيات القرآنية ، التي هي ظواهر ظنية لا تعارض اليقينيات ، إما تأويلاً إجمالياً ويفوض تفصيله إلى الله تعالى، كما هو مذهب أكثر السلف، وإما تفصيلياً كما هو مذهب أكثر الخلف. فالاستواء في قوله تعالى: (الرحمن على العرش استوى) هو الإستيلاء ويؤيده قول الشاعر:

قد استوى عمرو على العراق من غير سيف ودم مهراق

وقوله تعالى: (وجاء ربك والملك صفا صفا) أي جاء أمره . وقوله: (إليه يصعد الكلم الطيب) أي يرتضيه، فإن الكلم عرض يمتنع عليه الانتقال بنفسه.

وقوله سبحانه (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام) أي يأتي عذابه . وقوله تعالى (ثم دنى فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى) أي قرب رسوله إليه بالطاعة، والتقدير بقاب قوسين تصوير للمعقول بالمحسوس .

وقوله صلى الله عليه وسلم: (إنه تعالى ينزل إلى السماء الدنيا في كل ليلة فيقول هل من تائب فأتوب عليه هل من مستغفر فاغفر له) معناه تنزل رحمته وخص بالليل لأنه مظنة الخلوات ، وأنواع الخضوع والعبادات . إلى غير ذلك من الآيات والأحاديث .

○ ○

الوهابية ونفيها الإجماع

حيث كان ما انطوت عليه العقيدة الوهابية مبايناً لما أجمع عليه الصحابة الكرام والمجتهدون العظام ، وكافة علماء الإسلام ، لم ير أصحاب تلك العقيدة بدّاً من إنكار الإجماع ونفي كونه حجة يعمل بها .

فهم قد كفَّروا كل مسلم عداهم ممن قال: لا إله إلا الله محمد رسول الله بسبب زيارته لقبور الأنبياء والأولياء والتوسل بهم إلى الله تعالى .

مع أن الأمة قد أجمعت أن من نطق بالشهادتين أجريت عليه أحكام الإسلام لحديث: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله) ولحديث (كفوا عن أهل لا إله إلا الله)

وقال ابن القيم: أجمع المسلمون على أن الكافر إذا قال لاإله إلا الله وأن محمداً رسول الله فقد دخل في الإسلام . ولذلك انعقد الإجماع على أن المرتد إذا كانت ردته بالشرك ، فإن توبته بالشهادتين .

ثم إن الوهابية عدُّوا الاستشفاع إلى الله تعالى بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد موته كفراً ، مع أن الإجماع منعقد على جوازه ، وهم لم

يجوزوا لأحد أن يقلد مجتهداً من أئمة المسلمين ، وجوزوا لكل أحد أن يستنبط من القرآن ما استطاع أن يستنبط !

مع أن الإجماع واقع على أنه لا يجوز لأحد أن يكون إماماً في الدين والمذهب ، حتى يكون جامعاً لخصال الاجتهاد ، فليس لأحد أن يأخذ من الكتاب والسنة ما لم يجتمع فيه تلك الخصال التي هي شروط الاجتهاد .

أما الإجماع فهو اتفاق المجتهدين من الأمة الإسلامية في عصر ، على أمر ديني أو دنيوي ، ويلزم على هذا التعريف عدم انعقاد الإجماع على أمر بعد انقراض المجتهدين ، مع أنك تعلم أنه لو لم يكن لانعقاد الإجماع جواز في كل عصر لما انحسم ما تراه يحدث كل يوم من الأمور ، التي لم يصرح بحكمها في الكتاب والسنة ، ولا تكلم فيها المجتهدون السابقون.

مثاله: أن رجلاً سمع بما استجد من القول إن الأرض متحركة حول الشمس فقال غير مكترث لذلك: إن كانت الأرض متحركة فزوجته طالق ، ولما لم يكن في الكتاب ولا في السنة صراحة دلالة على ثبوت الأرض ولا على حركتها ، لزم أن يبين علماء الأمة حكم هذه المسألة ، فينعقد إجماعهم على حركة الأرض ، حتى ينحسم به مثل هذه المسألة .

وكذلك لو فرضنا أن رجلاً صائماً ركب بالوناً (المركبة الهوائية) قبيل الغروب فارتفع به في الجو صاعداً حتى بلغ علو عشرة آلاف ذراع ، ثم غابت الشمس على الأرض ، فأفطر الناس هنالك ، لكنها لم تغب عن عينه وهو في الجو بسبب كرية الأرض، فهل يسوغ له الافطار أو هل وجبت عليه صلاة المغرب ؟

فهذا مما لم يصرح به في الكتاب ولا في السنة ، فيلزم على علماء العصر أن يبينوا حكم أمثاله ، ويجمعوا عليه . ويوافق ما قلناه تعريف الإمام الغزالي للاجماع بقوله: هو اتفاق الأمة المحمدية على أمر من الأمور . والمراد باتفاق الأمة هو اتفاق علمائها كما لا يخفى .

قال المنكرون للإجماع: إن انعقاده محال ، واستدلوا على ذلك قائلين إن اتفاقهم فرع تساويهم في نقل الحكم إليهم ، وانتشارهم في البلاد القصية مانع من ذلك .

فأجيب: بمنع كون الانتشار مانعاً مع جدهمُ في البحث عن الأدلة.

وقالوا أيضاً: الاتفاق إما عن دليل قاطع أو ظني وكلاهما باطل ، أما القاطع فغير موجود ، كيف ولو كان لنقل فأغنى عن الإجماع، فلما لم ينقل علم عدم وجوده . وأما الظني فالاتفاق فيه ممتنع عادة لاختلاف القرائح وتباين الأنظار .

والجواب: منع ما ذكر، أما في القاطع فللاستغناء عن نقله بحصول الإجماع الذي هو أقوى منه ، وارتفاع الخلاف المحوج إلى نقله .

وأما الظني فلجواز أن يكون جلياً مما لا يمنع اختلاف القرائح والأنظار الاتفاق فيه ، وإنما يمنعه فيما يدق ويخفى مسلكه .

قالوا: لو سلمنا ثبوت الإجماع في نفسه فالعلم باتفاقهم محال ، واحتجوا بأن العادة قاضية أن لايصادف أن يثبت عن كل واحد من علماء الشرق والغرب أنه حكم في المسألة الفلانية بالحكم الفلاني. وكذلك احتجوا بأن نقل الإجماع مستحيل عادة ، لأن نقله من الآحاد لا يفيد فلا يعمل به في الإجماع ، والتواتر لا يتصور ، إذا الواجب فيه استواء الطرفين والواسطة ، ومن البعيد أن يشاهد أهل التواتر جميع العلماء المتشتتين في البلاد شرقاً وغرباً ويسمعوا منهم وينقلوا عنهم ، هكذا طبقة بعد أخرى إلى أن يتصل بنا .

والجواب: عن كلا الاحتجاجين واحد، وهو أنه تشكيك في مصادمة الضرورة ، فقد علم قطعا إجماع الصحابة والتابعين على تقديم الدليل القاطع على المظنون ، وما ذلك إلا بثبوته عنهم ونقله إلينا .

ثم إن الإجماع حجةعند جميع العلماء إلا النظّام وبعض الخوارج!

والدليل على حجيته أنهم اتفقوا على القطع بتخطئة المخالف للإجماع فكان حجة ، لأن العادة تحيل اتفاق عدد كثير من العلماء

المحققين على القطع في شرعي من غير قاطع ، فوجب بحكم العادة تقدير نص قاطع دال على القطع بتخطئة مخالف الإجماع .

لايقال: على ذلك إن فيه إثبات الإجماع بالإجماع ، ولا إثبات الإجماع بنص قاطع توقف ثبوته على الإجماع ، لأن ثبوت ذلك النص مستفاد من الإجماع على القطع بالتخطئة ، وهذا دور.

لأنا نقول: إن المدعى هو كون الإجماع حجة ، والذي ثبت به ذلك هو وجود نص قاطع دل عليه وجود صورة من الإجماع يمتنع عادة وجودها بدون ذلك النص ، وثبوت هذه الصورة من الإجماع ودلالتها العادية على وجود النص لا تتوقف على كون الإجماع حجة ، لأن وجود تلك الصورة مستفاد من التواتر، دلالتها على النص مستفادة من العادة .

ومن الأدلة على حجية الإجماع أيضاً قوله عليه الصلاة والسلام: (**لا تجتمع أمتي على الخطأ**) فإن معنى هذا الحديث متواتر لما أنه جاء بروايات كثيرة نحو: (**لا تجتمع أمتي على الضلالة**) (**لا يزال طائفة من أمتي على الحق حتى تقوم الساعة**) (**يد الله مع الجماعة**) (**من فارق الجماعة قيد شبر مات ميتة جاهلية**) إلى غير ذلك والآحاد ، وإن لم تتواتر فقد تواتر القدر المشترك ، وحصل به العلم ، كما في شجاعة علي وجود حاتم .

احتج المنكرون لحجية الإجماع بقوله تعالى: (وأنزلنا إليك الكتاب تبيانا لكل شئ) فقالوا لا مرجع في تبيان الأحكام إلا إلى الكتاب .

والجواب: إن هذا لا ينافي كون غير الكتاب أيضاً تبياناً ، ولا كونه تبياناً لبعض الأشياء بواسطة الإجماع ، وإن سلم فغايته الظهور ولا يقاوم القاطع .

واحتجوا أيضاً بقوله تعالى:(فإن تنازعتم في شئ فردوه إلى الله والرسول) قالوا فلا مرجع غير الكتاب والسنة .

والجواب: إن هذا يختص بما فيه النزاع ، والمجمع عليه ليس كذلك أو هو يختص بالصحابة . ولئن سلمنا فغايته أنه ظاهر وهو لا يصادم القطعي كما مر.

واستدلوا أيضاً بحديث معاذ وهو أنه أهمل الإجماع عند ذكر الأدلة إذ سأله النبي صلى الله عليه وسلم عنها وأقره عليه الصلاة والسلام ، قالوا: فقد دل هذا على أن الإجماع ليس بدليل .

والجواب: أنه إنما لم يذكره ، لأنه حينئذ لم يكن حجة لعدم تقرر المأخذ من الكتاب والسنة بعد ، ولا يلزم أن لا يكون حجة بعد الرسل ، وتقرر المأخذ .

○ ○

الوهابية ونفيها القياس

إن الوهابية كما أنكروا الإجماع كذلك أنكروا القياس، وما قصدوا بإنكاره إلا التوصل إلى الطعن بمجتهدي الأمة ، قائلين إنهم نابذون كتاب الله وسنة رسوله ظهرياً ، عاملون بمقتضى آرائهم ، حتى أنهم أخذوا ينددون على أئمة الدين القائلين بالقياس وكونه حجة ، ويشنعون عليهم بأنهم يعتقدون الدين ناقصاً ، وأنهم يتمونه بمثل الإجماع والقياس، وقد قال الله تعالى (اليوم أكملت لكم دينكم) ويقولون إنا لنجد الرطب واليابس في كتاب الله المبين فأي حاجة تدعونا إلى القياس ، فإن النصوص تستوعب جميع الحوادث من غير حاجة إلى استنباط وقياس .

ومن العجب أن الوهابية لأجل تخطئة المجتهدين في قبولهم القياس جعلت تعبث بكلام الله تعالى ، فتصرف الآيات القرآنية عن معانيها الصحيحة ، مؤولة إياها بما يوافق هواها ، مع أنها لا تأول من الآيات ما يلزم من ظاهره النقص على الله تعالى والمحال ، كآية الاستواء واليد والوجه .

ونقول: إن المجتهدين عاملون بآرائهم ، مع أنها تجوز حتى للجهلة الرعاع من ذوي نحلتها أن يفسروا كلام الله بحسب أفهامهم القاصرة .

القياس

هو مساواة فرع لأصله في علة الحكم . وأركانه أربعة:

الأصل المشبه به . والفرع المشبه . وحكم الأصل . والوصف الجامع الذي هو جهة التشبيه . وليس حكم الفرع ركناً له ، لأنه ثمرة القياس ونتيجته ، فإذا قلنا النبيذ مسكر فيحرم قياساً على الخمر بدليل قوله: حرمت الخمر فالأصل هو الخمر وهو المشبه به. والفرع في مثالنا هو النبيذ الذي هو المشبه . وحكم الأصل هو الحرمة . والوصف الجامع هو الإسكار .

والقياس حجة لأن أكثر الصحابة قد عملوا به متكرراً ، مع سكوت الآخرين والسكوت في مثل ذلك وفاق عادة، ولقوله تعالى: (فاعتبروا) ومعلوم أن الإعتبار هو قياس الشئ ليس إلا .

ولو لم يكن حجة لبقي كثير من الأمور التي نراها تستجد بحسب الزمان مهمل الحكم ، مما ليس في ظاهر الكتاب والسنة ما يتبين به حكمه صراحة! وهذا لا ينافي قوله تعالى: (ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) فإن المقصود بالكتاب المبين هنا هو اللوح المحفوظ ، الذي أودعه الله تعالى ما كان وما يكون .

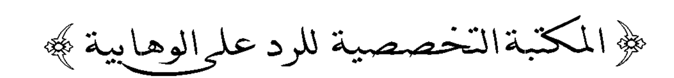
أو نقول: يقاس به في حكم كونه مذكوراً أيضاً ، لأنه مبني عليه.

أو نقول: من البديهي إن احتواء كتاب الله على كل رطب

ويابس ، ليس كله بطريق الصراحة ، بل كثير من أحكامه يستنبط منه استنباطاً ، ومن طرق الاستنباط القياس .

فقول الوهابية إن النصوص تستوعب جميع الحوادث بدون استنباط أو قياس ، غير مسلَّم ، فإن استيعابها جميع الحوادث لا يتم إلا بطريقهما .

ه ه


المكتبة التخصصية للرد على الوهابية

الوهابية وتكفيرها من قلد المجتهدين

لما كانت أقوال المجتهدين السالفين رحمهم الله تعالى، وما وصلوا إليه باجتهادهم من الأحكام المقررة الدينية ، تصادم ما ابتدعته الفئة المارقة الوهابية ، لم تر هذه الفئة بداً من إنكارها صحة اجتهادهم وتخطئة آرائهم، وتكفير من قلدهم ، حتى يخلو لها الجو فتبيض وتصفر وتلعب بالدين كما شاء هواها ، ويتمهد لها الطريق إلى تأسيس قواعد ضلالها المبين .

إذ هي لو لم تنف اجتهادهم لما تم لها أن تصرف بحسب هواها الآيات النازلة في المشركين إلى المسلمين الذين يتوسلون إلى الله تعالى بجاه رسوله وكرامة أوليائه لأن هذا الصرف مما لم يقل به مجتهد ، ولم يرض به أحد من أئمة الدين .

وحيث إن مبتدع ضلالتها ابن عبد الوهاب كان كثير الميل إلى الاطلاع على أخبار من ادعى النبوة كمسيلمة وأبي الأسود العنسي وغيرهما من الكذابين ، وأنه كان يضمر في نفسه أن يؤسس ديناً يحذو به حذو أولئك الكذابين ! ولكنه خاف أن يظهر للناس كذبه كما ظهر كذبهم !

أبرز ما كان يضمره بصورة النصر للدين المحمدي ! مموهاً على

عقول الناس أنه يريد التوحيد الحقيقي ، وأن الناس قد أشركوا ! فيلزم جهادهم حتى يرجعوا عن شركهم !

وادعى الاجتهاد المطلق ، وخطأ كل من تقدمه من المجتهدين ، أولئك الأخيار الذين اغترفوا من بحر علم النبي صلى الله عليه وسلم، وكفر مقلديهم ولم يجز لأحد تقليد غيره ، مع أنه أجاز لكل أحد من أتباعه الجاهلين أن يفسر الآيات الفرقانية بما يصل إليه قاصر فهمه ، وأن يأخذ الأحكام منها حسب عاجز إدراكه ! فكأنه جوز لكل أحد من أتباعه أن يكون مجتهداً !

فانظر إلى هذا التلاعب بالدين، والعبث بشريعة الرسول الأمين !

نقول : أما ادعاؤه الاجتهاد المطلق فهو محض سفه منه وقحة بالغة ! إذ هو لم يكن في زمنه ممن عرف له الرسوخ في العلم ، بل ولا ممن عد في عداد أرباب الترجيح في المذهب ، فضلاً عن أن يكون مجتهداً مطلقاً في الدين!

فإن للاجتهاد شروطاً أجمعت العلماء قاطبة على أنه لا يجوز لأحد أن يكون إماماً في الدين والمذهب حتى يكون مستوفياً لها .

منها: أن يكون حافظاً للغات العرب ، عارفاً باختلافها ومعاني أشعارها وأمثالها وعاداتها .

ومنها: أن يكون واقفاً على اختلاف العلماء والفقهاء ، وأن يكون

فقيهاً عالماً بكتاب الله ، حافظاً له عارفاً باختلاف قرا آته، اختلاف قرائه، بصيراً بتفسيره، خبيراً بمحكمه ومتشابهه ، وناسخه ومنسوخه، وقصصه .

ومنها: أن يكون عالماً بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مميزاً بين صحيح أحاديثه وسقيمها ، ومتصلها ومراسيلها ، ومسانيدها ومشاهيرها .

ومنها: أن يكون ورعاً ديناً صائناً لنفسه ، صدوقاً ثقة ، يبني مذهبه على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فمن فاتته واحدة من هذه الخصال كان ناقصاً ، فلا يجوز أن يكون مجتهداً يقلده الناس .

وقال ابن القيم في إعلام الموقعين: لا يجوز لأحد أن يأخذ من الكتاب والسنة ما لم تجتمع فيه شروط الاجتهاد من جميع العلوم .

وسأل رجل أحمد بن حنبل: إذا حفظ الرجل مائة ألف حديث ، هل يكون فقيهاً ؟ قال: لا ، قال: فمائتي ألف حديث؟ قال: لا، قال: فثلاث مائة ألف حديث ؟ قال: لا، قال: فأربعمائة ألف حديث ؟ قال: نعم !

ويقال إن أحمد بن حنبل أجاب عن ستمائة ألف حديث ، وأنت تعلم أن الناس قد أجمعوا جيلاً بعد جيل وقرناً بعد قرن ، على أن

الأئمة المجتهدين ما استنبطوا أحكام الله من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم إلا بعد ما أحاطوا بالسنة علماً ، وبالكتاب تفقهاً وفهماً ، إحاطة قلَّ أن يوجد بعدهم من يتوصل إليها ، بل العلماء طبقة بعد طبقة متمسكون بأقوالهم كالنووي والرافعي والتقي السبكي وابن حزم وابن تيمية وابن القيم وابن الجوزي. وكالفخر الرازي والطحاوي والقاسم والقرافي ، جميعاً على تقليدهم واتباعهم ، مع أن كل واحد من هؤلاء الأحبار ومن قبلهم ، كانت له اليد الطولى في كل فن من الفنون ، لكن لما علموا أنهم لم يصلوا إلى رتبة الاستنباط من كتاب الله وسنة رسوله ، وقفوا عند حدهم .

ورحم الله امرأة عرف قدره ولم يتعد طوره .

فكيف يسوغ للواحد منا في هذا الزمان المتأخر أن يستنبط من كتاب الله وسنة رسوله ، ويطرح أقوال العلماء المستنبطين، الذين أجمع الخاص والعام على اتباعهم فيه.

وأما تكفير ابن عبد الوهاب لمقلدي من تقدم من المجتهدين ، فهو كما ذكرناه آنفاً ، إنما كان صادراً منه لترويج بدعته ، حتى لا يَعُدَّ مسلماً إلا من اتبعه !

وليت شعري لو فرضنا أن المجتهدين السابقين كما زعم ابن عبد

الوهاب قد ضلوا وأضلوا ، فما الذي كان يلزم على عوام الناس أن يعملوا حينئذ ، وهم لم يكونوا قادرين على معرفة أخذ الأحكام واستنباطها من كتاب الله وسنة رسوله ؟! وابن عبد الوهاب نفسه لم يكن إذ ذاك مولوداً حتى ينقذهم من ورطة غيهم وجهالتهم !

ولاأظن أنه كان قد بلغت به القحة أن يقول أولئك الناس أهل فترة جاؤوا في زمن لم يكن فيه مجدد في الدين .

المنصف يعلم أن التقليد ضروري إذ من المحال عادة أن يكون كل فرد من أفراد المسلمين بالغاً في العلم منزلة يمكنه فيها أن يستنبط الأحكام الشرعية رأساً من كتاب الله وسنة رسوله ، مما ليس فيه نص صريح ، سيما الجاهلين باللغة العربية كل الجهالة من عوام الأمم الأعجمية كالفرس والأكراد والأفغان والأتراك وغيرهم، ممن يزيد عددهم على مسلمي العرب زيادة كبيرة كما لا يخفى على العارفين بجغرافية الأمم .

وقد أطبق العلماء أنه يجب على من لم يبلغ درجة الاجتهاد أن يقلد مجتهداً وقال تعالى: **(فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون)** وقال صلى الله عليه وسلم: **(هلا إذا لم يعلموا سألوا فإنما دواء العي السؤال)** .

○ ○

الوهابية وتكفيرها المسلمين

للوهابية ذرائع اتخذتها لتأسيس بدعتها ! منها تكفير المسلمين ، وذلك أن ابن عبد الوهاب كما علمت مما قدمناه لك فيما كتبناه سابقاً ، قد سولت له نفسه الأمّارة أن يبتدع ديناً جديداً ينال به الرياسة ، ولكنه لما رأى أن ذلك لا يتم له في بلاد أهلها على جهلهم شديد ، والتمسك بالدين الإسلامي !

ابتدع ما ابتدعه في نفس الدين الإسلامي ! وحيث رأى أن الأمر لا يتم له إلا بعد تكفير جميع المسلمين بشبه قرآنية ، وجد الطريق الوحيد إلى تكفيرهم توسلهم إلى الله تعالى بنبيهم صلى الله عليه وسلم وبغيره من الأنبياء والأولياء والصالحين ، وكذا ما يتبعه من النذر والذبح وغير ذلك ، مما سوف يأتي ! فعد تلك الأمور عبادة ، وإذ كان القرآن العظيم مفهماً بالآيات الناطقة بأن من يعبد غير الله تعالى فهو مشرك ، جعل الموحدين جميعهم مشركين بسبب تلك الأمور !!

ثم إن الوهابية لما كفروا جميع المسلمين ممن خالفهم، جعلوا بلادهم بلاد حرب فهدروا دماءهم ، وحللوا أموالهم ، وقد قال الله تعالى: (إن الدين عند الله الإسلام) وقال تعالى: (ومن يبتغ غير

الإسلام دينا فلن يقبل منه) وقال عليه الصلاة والسلام: (الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله) الحديث . وفي حديث ابن عمر: (بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله) الحديث .

وفي حديث وفد عبد القيس: (آمركم بالإيمان بالله وحده أتدرون ما الإيمان بالله وحده شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله) الحديث ، وغير ذلك من الأحاديث .

قال ابن القيم: أجمع المسلمون على أن الكافر إذا قال لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فقد دخل في الإسلام .

واعلم أن تكفير المسلم أمر غير هين فقد أجمع العلماء منهم الشيخ ابن تيمية وابن القيم على أن الجاهل والمخطئ من هذه الأمة ولو عمل ما يجعل صاحبه مشركاً أو كافراً ، يعذر بالجهل والخطأ ، حتى نتبين له الحجة بياناً واضحاً لايلتبس على مثله . والمسلم قد يجتمع فيه الكفر والإسلام والشرك والإيمان ، ولا يكفر كفراً ينقله عن الملة ، فقد فارقت الخوارج أولاً الجماعة وقد ذكرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر بقتلهم وقتالهم وقال: (يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية أينما لقيتموهم فاقتلوهم) وقال: (إنهم كلاب أهل النار) وقال: (يقرأون القرآن يحسبونه

لهم وهو عليهم) وهم قد خرجوا في زمن علي رضي الله عنه فكفروا علياً ومعاوية ومن معهم، واستحلوا دماء المسلمين وأموالهم وجعلوا بلادهم بلاد حرب وبلاد أنفسهم بلاد إيمان ، ولم يقبلوا من السنة إلا ما وافق مذهبهم ، واستدلوا لمذهبهم بمتشابه القرآن ، وجعلوا الآيات النازلة في المشركين في أهل الإسلام .

ومع كفرهم لم يكفرهم الصحابة ولا التابعون ، كما نقله ابن تيمية وقال لهم علي رضي الله عنه: **لا نبدأ كم بقتال ولا نمنعكم من مساجد الله أن تذكروا فيها اسمه ولا نمنعكم من الفيئ ما دامت أيديكم معنا.** وقد ناظرهم أكابر الصحابة منهم ابن عباس رضي الله عنه حتى رجع منهم إلى الحق أربعة آلاف .

وأما قتال أهل الردة فلأن صنفا منهم ارتدوا عن الإسلام ، وعادوا إلى الكفر الذي كانوا عليه من عبادة الأوثان . وصنفاً ارتدوا وتابعوا مسيلمة وهم بنو حنيفة وقبائل غيرهم . وصنفاً ارتدوا ووافقوا الأسود العنسي في اليمن . وصنفاً صدقوا طليحة الأسدي وهم غطفان وفزارة وغيرهما . وصنفاً صدقوا سجاح فهؤلاء أنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وتركوا الزكاة والصلاة وسائر الشريعة الإسلامية . وصنفاً فرقوا بين الصلاة والزكاة وأنكروا وجوب أدائها إلى الإمام ، وهؤلاء في الحقيقة أهل بغي وإنما أضيف إليهم اسم الردة لدخولهم حينئذ في غمار أهل الردة .

ثم فارقت القدرية الجماعة في آخر زمن الصحابة وهم فرقتان:

(الأولى) أنكرت القدر رأساً وقالت إن الله لم يقدر المعاصي على أهلها ولا يهدي الضال ، ولا يقدر ذلك ، فعندهم المسلم هو من جعل نفسه مسلماً بنفسه ، والمصلي هو الذي جعل نفسه مصلياً ، إلى غير ذلك من الطاعات والمعاصي ، فجعلوا العبد خالقا لأعماله .

(والثانية) بضد الأولى ، زعموا أن الله جبر الخلق على ما عملوا ، وأن الكفر والمعاصي في الخلق كالبياض والسواد في الخلق ، فعندهم ليس للمخلوق في جميع ذلك صنع ، بل جميع المعاصي عندهم تضاف إلى الله ! وهؤلاء هم أتباع إبليس حيث قال: فبما أغويتني . وكذلك قال المشركون: لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا. ومع كل كفر القدرية هذا، وضلالهم لم يكفرهم أحد من الصحابة ولا من التابعين ، بل قاموا في وجوههم وبينوا لهم ضلالهم من الكتاب والسنة، وما أوجبوا قتلهم، ولا أجروا عليهم أحكام أهل الردة .

ثم فارقت المعتزلة الجماعة في زمن التابعين ، ومن أقوالهم الكفرية ، قولهم بخلق القرآن ، ومنها: إنكار شفاعة النبي صلى الله عليه وسلم لأهل المعاصي ، ومنها: قولهم بخلود أهل المعاصي في النار، وغير ذلك من أقوالهم ، ولم يكفرهم أحد من العلماء حينئذ ،

بل قام في وجوههم العلماء من التابعين ومن بعدهم ، وردوا عليهم وبينوا باطلهم ، ولكن لم يجروا عليهم أحكام أهل الردة ، بل أجروا عليهم وعلى من تقدمهم من أهل البدع أحكام المسلمين، من التوارث والتناكح والصلاة عليهم ، ودفنهم في مقابر المسلمين .

ثم فارقت الجماعة المرجئة القائلة إن الإيمان قول بلا عمل ، فمن نطق عندهم بالشهادتين فهو مؤمن ، وإن لم يصل لله ركعة طول عمره ولا صام يوما من رمضان !

ومع تماديهم في ضلالهم واستمرارهم على عنادهم ، بعد أن بين أهل الحق لهم خطأ مذهبهم ، لم يكفروهم ، بل جعلوا الأخوة الايمانية ثابتة لهم ، ولمن قبلهم من أهل البدع .

ثم فارقت الجهمية الجماعة فقالوا ليس على العرش إله يعبد ، ولا لله في الأرض من كلام ، وأنكروا صفات الله التي أثبتها لنفسه في كتابه المبين وأثبتها رسوله الصادق الأمين ، وأجمع على القول بها الصحابة ، وكذلك أنكروا رؤية الله تعالى في الآخرة ، إلى غير ذلك من أقوالهم ومعتقداتهم الكفرية .

ومع ذلك فقد رد عليهم الأئمة وبينوا ضلالهم ، حتى أنهم قتلوا بعض دعاتهم كجهم بن صفوان والجعد بن درهم ، وبعد أن قتلوهم غسلوهم وصلوا عليهم ودفنوهم في مقابر المسلمين ، ولم يجروا عليهم أحكام أهل الردة.

ثم فارقت الرافضة الجماعة ووافقوا المعتزلة في اعتقاد خلقهم الأفعال ، وأنكروا رؤية الباري تعالى يوم القيامة ، وحكموا بكفرا أكثر الصحابة ، وقذفوا أم المؤمنين ، ومع ذلك فلم يكفرهم أحد من العلماء ، ولا منعوهم عن التوارث ولا التناكح ، وأجروا عليهم أحكام المسلمين .

ومذهب السلف الذي تتستر به الوهابية هو عدم القول بتكفير طوائف المارقين الذين ذكرنا هم .

قال الشيخ تقي الدين بن تيمية: لم يكفر الإمام أحمد الخوارج ولا المرجئة ولا القدرية ، ولا أعيان الجهمية ، بل صلى خلف الجهمية الذين دعوا الناس إلى قولهم ، وعاقبوا من لم يوافقهم بالعقوبات الشديدة .

وقال أيضاً ما محصله: إن من البدع المنكرة تكفير طائفة من المسلمين واستحلال دمائهم وأموالهم ، إذ لعل تلك الطائفة ليس فيها من البدعة أعظم مما في الطائفة المكفرة لها !

ولو فرض أن تلك الطائفة قد ابتدعت لم يجز للطائفة التي على السنة أن تكفرها ، لما عسى أن تكون بدعتها ناشئة عن خطأ ، قال الله تعالى: (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) وقال تعالى: (لا جناح عليكم فيما أخطأتم به ولكن ما تعمدت قلوبكم) . وقال

النبي صلى الله عليه وسلم: **(إن الله تجاوز لأمتي عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه)** .

وقد انعقد الإجماع على أن من كان مقراً بما جاء به الرسول ، وإن كانت فيه خصلة من الكفر أو الشرك ، لا يكفَّر حتى تقام عليه الحجة ، والحجة لا تقوم إلا بالإجماع القطعي لا الظني، الذي يقيم الحجة هو الإمام أو نائبه والكفر إنما يكون بإنكار الضروريات من دين الإسلام، وجود الباري ووحدانيته، إنكار رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، أو بإنكار الفرائض كوجوب الصلاة .

ومذهب أهل السنة والجماعة التحاشي عن تكفير من انتسب للإسلام حتى أنهم يقفون عن تكفير أئمة أهل البدع ، مع الأمر بقتلهم دفعاً لضررهم لا لكفرهم ، والشخص الواحد يجمع فيه الكفر والإيمان والنفاق والشرك ، ولا يكفر كل الكفر ، فمن اعترف بالإسلام قبل منه سواء كان صادقاً أو كاذباً وإن ظهرت منه بعض علامات النفاق .

والجهل عذر عن الكفر ، وكذلك الشبهة وإن كانت ضعيفة .

هذا فقد تبين ما للوهابية في تكفيرها المسلمينً من البدعة والمخالفة لما جاء به كتاب الله وسنة رسوله ، ولأقوال أئمة الدين والعلماء المجتهدين !

الوهابية ونفيها التوسل

ذكرنا فيما سبق تكفير الوهابية لمن خالف بدعتها من جميع المسلمين ونسبتها إياهم إلى الشرك الأكبر!

وقد آن لنا أن نذكر ههنا ما اتخذته ذريعة لتكفيرهم من الأمور.

فمنها: الاستغاثة بالأنبياء والأولياء والتوسل بهم إلى الله تعالى، وزيارة قبورهم، فهي قد نفت ذلك وحرمته، وشددت النكير على المستغيثين والمتوسلين والزائرين، فكفرتهم وعدتهم مشركين كعبَّاد الأوثان!

بل جعلتهم أسوأ حالاً منهم، حيث قالت إن المشركين السابقين كانوا مشركين في الألوهية فقط، وأما مشركو المسلمين تعني بهم من خالفها منهم فقد أشركوا في الألوهية والربوبية!

وقالت أيضاً: إن الكفار في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يشركون دائماً، بل تارة يشركون، وتارة يوحدون الله ويتركون دعاء الأنبياء والصالحين، وذلك أنهم إذا كانوا في السراء دعوهم واعتقدوا بهم، وإذا أصابهم الضر والشدائد تركوهم وأخلصوا لله الدين، وعرفوا أن الأنبياء والصالحين، لايملكون ضراً ولا نفعاً، حملت الوهابية جميع الآيات القرآنية التي نزلت في المشركين

على الموحدين من أمة محمد صلى الله عليه وسلم وتمسكت بها في تكفيرهم ، منها قوله تعالى: (فلا تدعوا مع الله أحدا)

وقوله تعالى: (ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون. وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) .

وقوله تعالى: (ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين) .

وقوله تعالى: (والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبأك مثل خبير) .

وقوله تعالى: (ولا تدع مع الله إلها آخر فتكون من المعذبين).

وقوله تعالى: (له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشئ إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وماهو ببالغه ومادعاء الكافرين إلا في ضلال) .

وقوله تعالى: (قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذورا).

إلى غير ذلك من الآيات النازلة في المشركين ، فزعم ابن عبد الوهاب أن كل من استغاث بالنبي صلى الله عليه وسلم أو توسل به أو بغيره من الأنبياء والأولياء والصالحين ، أو ناداه أو سأله الشفاعة ، أو زار قبره يكون معدوداً في عداد هؤلاء المشركين ، داخلاً في عموم هذه الآيات .

وشبهته في ذلك: أن هذه الآيات وإن كانت نازلة في المشركين ، إلا أن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب .

والجواب: إنا لا ننكر أن العبرة هي لعموم اللفظ لا لخصوص السبب ، ولكنا نقول إن هذه الآيات لا تشمل من زعمت الوهابية أنها شاملة لهم ، لما أنه ليس من أحوال الكفار الذين نزلت هذه الآيات فيهم شئ عند المتوسلين والمستغيثين ، فإن الدعاء يأتي لمعان شتى كما سنذكره قريباً ، وهو في هذه الآيات كلها بمعنى العبادة ، والمسلمون لا يعبدون إلا الله تعالى ، وليس فيهم من اتخذ الأنبياء والأولياء آلهة ، وجعلهم شركاء لله تعالى ، حتى تعمهم هذه الآيات، ولا اعتقدوا أنهم يستحقون العبادة ، ولا أنهم يخلقون شيئاً، ولا أنهم يملكون ضراً ولا نفعاً .

بل إنما اعتقدوا أنهم عبيد الله مخلوقون له ، وما قصدوا بزيارة قبورهم والتوسل بهم إلى الله تعالى ، إلا التبرك بهم ، لكونهم أحباء الله المقربين الذين اصطفاهم واجتباهم ، فببركتهم يرحم عباده !

قالت الوهابية: إن اعتذاركم هذا هو عين اعتذار المشركين عن عبادة الأصنام ، فقد قال تعالى حكاية عن المشركين في اعتذارهم عن عبادة الأصنام (**ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى**) فالمشركون ما اعتقدوا في الأصنام أنها تخلق شيئاً ، بل اعتقدوا أن الخالق هو الله تعالى ، بدليل قوله تعالى: (**ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله**) وقوله تعالى (**ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض ليقولن الله**) فإنما حكم الله تعالى عليهم بالكفر لقولهم: ليقربونا إلى الله زلفى . قالت: وهكذا المتوسلون بالأنبياء والصالحين يقولون ما هو بمعنى قول المشركين: ليقربونا إلى الله زلفى .

والجواب من وجوه :

(الأول) إن المشركين جعلوا الأصنام آلهة، والمسلمون ما اعتقدوا إلا إلهاً واحداً فعندهم أن الأنبياء أنبياء والأولياء أولياء ، ليس إلا . فلم يتخذوهم آلهة مثل المشركين .

(الثاني) إن المشركين اعتقدوا أن تلك الآلهة مستحقون للعبادة ، بخلاف المسلمين فإنهم لم يعتقدوا أن أحدا من المتوسل بهم مستحق لأقل عبادة وليس عندهم المستحق للعبادة إلا الله وحده .

(الثالث) إن المشركين عبدوا تلك الآلهة بالفعل كما قال تعالى حكاية عنهم: (**وما نعبدهم إلا ليقربونا**) والمسلمون ما عبدوا الأنبياء والصالحين في توسلهم بهم إلى الله تعالى .

(الرابع)إن المشركين قصدوا بعبادة أصنامهم التقرب إلى الله تعالى كما حكى الله عنهم ، وأما المسلمون فلم يقصدوا بتوسلهم بالأنبياء وغيرهم التقرب إلى الله ، لما أن التقرب إليه تعالى لا يكون إلا بالعبادة ، ولذلك قال الله تعالى حكاية عن المشركين: (ما نعبدهم إلا ليقربونا) بل إن المسلمين قصدوا التبرك والاستشفاع بهم والتبرك بالشئ غير التقرب به كما لا يخفى.

(الخامس) إن المشركين لما كانوا يعتقدون أن الله تعالى جسم في السماء أرادوا بقولهم ليقربونا إلى الله التقريب الحقيقي ، ويدل عليه تأكيده بقولهم زلفى ، إذ تأكيد الشئ بما هو بمعناه يدل في الأكثر على أن المقصود به هو المعنى الحقيقي دون المجازي ، فإنا إذا قلنا قتله قتلاً ، تبادر القتل الحقيقي إلى الفهم ، لا الضرب الشديد . بخلاف ما إذا قلنا قتله فقط ، فإنه قد يراد به الضرب الشديد .

وأما المسلمون فحيث لم يعتقدوا أن الله جسم في السماء يبعد منهم أن يطلبوا التقرب الحقيقي إليه بالتوسل فلا ينطبق عليهم حكم الآية .

نعم إن الوهابية لما اعتقدت أن الله تعالى جسم استوى على عرشه في السماء ، لم تجد للتبرك الذي قصده المسلمون بتوسلهم معنى

غير التقرب الذي يكون إلى الأجسام ، ولذلك جعلت هذه الآية منطبقة عليهم .

ويجدر بنا أن نبين هنا أنواع الشرك فنقول:

منها: ما يقال له شرك الاستقلال ، وهو إثبات إلهين مستقلين كشرك المجوس .

ومنها: شرك التبعيض ، وهو تركيب الإله من عدة آلهة كشرك النصارى .

ومنها: شرك التقريب ، وهو عبادة غير الله تعالى ليقرب إلى الله زلفى كشرك الجاهلية ، والشرك الذي جعلته الوهابية أصلاً لشرك المستغيث والمتوسل ، وبنت عليه قاعدتها: هو شرك التقرب الذي دانت به الجاهلية والأمر الذي حمل الجاهلية على شركها هذا هو تسويل الشيطان لها أن عبادتها لله تعالى على ما هي عليه من غاية الضعف والعجز ، وتركها التقرب إليه بعبادة من هو أعلى منها عنده وأشرف وأقوى ، كنحو الملائكة ، إنما هو سوء أدب ، ولكن لما رأت غيبة من عبدته عنها دائماً ، أو بعض الأوقات صنعت الأصنام أمثلة لما غاب عنها من معبوداتها فعبدتها .

إذا تحققت هذا : اتضح لك أن حال مشركي الجاهلية لا ينطبق بوجه من الوجوه على المسلمين المتوسلين إلى الله بالأنبياء والصالحين .

فأولئك اتخذوا الأصنام آلهة والإله معناه المستحق للعبادة ، فهم اعتقدوا استحقاق الأصنام للعبادة ، واعتقدوا أولاً أنها تنفع وتضر فعبدوها !

فاعتقادهم هذا وعبادتهم إياها أوقعاهم في الشرك ، فلما أقيمت عليهم الحجة بأنها لا تملك نفعاً ولا ضراً ، قالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى فكيف يجوز للوهابية أن تجعل المؤمنين الموحدين مثل أولئك المشركين ، إذ لا شك أن المشركين إنما كفروا بسبب عبادتهم تماثيل الأنبياء والملائكة والأولياء ، التي صوروها على صورهم ، وسجدوا لها وذبحوا ، وبسبب اعتقادهم في الملائكة والأنبياء والأولياء أنهم آلهة مع الله، يضرون وينفعون بذواتهم . ولذلك احتج الله تعالى على إبطال قولهم وضرب الأمثال للرد على معتقدهم ، في كثير من الآيات بأن الإله المستحق للعبادة يجب أن يكون قادراً على كشف الضر ، وإيصال النفع لمن عبده ، وبأن ما عبدوه من جملة المحدثات المنافية للربوبية .

وأما المستغيث والمتوسل فهو براء من هذه العبادة ، وهذا الاعتقاد

وأما القول بأن مجرد الاستغاثة عبادة لغير الله تعالى فتحكُّم ومكابرة ، إذ الآيات التي استدلت بها الوهابية إنما نزلت جميعها

في الكفار الذين عبدوا غير الله ، وإن قصدوا بعبادتهم ذلك الغير التقرب إليه تعالى .

وفي الذين اعتقدوا أن مع الله إلهاً آخر ، وأن له ولداً وزوجة ! تعالى الله عما يقولون علوا كبيراً .

وهذا محل وفاق لا نزاع فيه ، وليس في الآيات النازلة في الكفار دلالة على كون مجرد الاستغاثة بنبي أو ولي مع الإيمان بالله تعالى، هي عبادة لغير الله تعالى !

قالت الوهابية: إن الاستغاثة من نوع الدعاء، وقد ورد في الحديث الشريف (إن الدعاء هو العبادة) فالذي يستغيث بنبي أو ولي فهو إنما يعبده بتلك الاستغاثة ، وحيث أن العبادة لا تصلح إلا لله وحده، وأن عبادة غيره شرك كان المستغيث بغيره مشركاً !

فالجواب على هذا: إن ضمير الفعل إنما يفيد قصر المسند على المسند إليه وكذا تعريف الخبر كما ذكره صاحب المفتاح ، وعليه الجمهور ، فقولنا الله هو الرزاق مثلاً معناه لا رازق سواه ، وعلى هذا فقوله عليه الصلاة والسلام (الدعاء هو العبادة) دال على أن العبادة مقصورة على الدعاء ، فيكون المراد من الحديث أن العبادة ليست غير الدعاء ، ويؤيده قوله تعالى: (قل ما يعبأ بكم ربي لولا دعاؤكم) أي ما يصنع بكم لولا عبادتكم ، فإن شرف الإنسان بعبادته وكرامته بمعرفته وطاعته ، وإلا فلا فضل له على البهائم .

والحج والصلاة والزكاة والصيام والشهادة كلها دعاء ، وكذلك التلاوة والأذكار والطاعة ، فانحصرت العبادة في الدعاء .

إذا تقرر هذا ، فلا حجة في الحديث إذ على تقدير كون الاستغاثة من نوع الدعاء ، كما قالته الوهابية ، لا يلزم أن تكون عبادة ، لما أن الدعاء قد لا يكون عبادة كما هو ظاهر .

وأما إذا قصرنا المسند إليه على المسند في الحديث ، بناء على ما ذهب إليه صاحب الكشاف ، من أن تعريف الخبر قد يكون لقصر المسند إليه، كما يكون لقصر المسند ، فلا يتم استدلال الوهابية به ، إلا إذا كانت أل في الدعاء للجنس والاستغراق، وهي ليست لذلك، إذ ليس كل دعاء عبادة فهو كما يكون بمعنى العبادة ، كما في قوله تعالى: (ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك) كذلك يكون بمعنى الاستعانة كقوله تعالى: (وادعوا شهداءكم) وبمعنى السؤال كقوله تعالى: (ادعوني أستجب لكم) وبمعنى القول كقوله تعالى (دعواهم فيها سبحانك اللهم) ، وبمعنى النداء كقوله تعالى (يوم يدعوكم)، وبمعنى التسمية كقوله: (لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) ، على ما فصله صاحب الاتقان .

وعليه فلو كانت أل للجنس والاستغراق ، كان قول المرء يا زيد

أعطني درهماً كفراً ! والوهابية لا تقول به ، فتعين أن أل في الحديث للعهد ، فيكون المراد بالدعاء في الحديث هو دعاء الحق تعالى ، لا مطلق الدعاء ، أي أن سؤال الله تعالى هو من أعظم العبادة ، فهو على حد قوله عليه الصلاة والسلام (الحج عرفة) أي ركنه الأكبر وذلك لأنه يدل على أن السائل مقبل عليه تعالى معرض عما سواه ، ولأن السؤال مأمور به ، وفعل المأمور به عبادة وسماه النبي عبادة ليخضع الداعي ويظهر ذلته وافتقاره ، إذ العبادة ذل وخضوع .

ومن الدلائل على كون المراد من الدعاء في الحديث هو دعاء الله ، لا مطلق الدعاء ، ما حققه كثير من اللغويين وصرح به ابن رشد ، والقرافي في شرح التنقيح، من أن السؤال أحد أقسام الطلب، وهو طلب الأدنى من الأعلى فإذا كان من الله تعالى سمي سؤالاً ، ودعاء ولا يقال للطلب من غيره تعالى دعاء ، فإذا كان لا يجوز أن يقال للطلب من غيره تعالى مجرد دعاء فبالأحرى أن لا يقال لذلك الطلب دعاء بمعنى العبادة !

التوسل وأدلة جوازه

قبل الخوض في المطلب ، نبين لك أن المراد من الاستغاثة بالأنبياء والصالحين والتوسل بهم ، هو أنهم أسباب ووسائل لنيل المقصود ، وأن الله تعالى هو الفاعل كرامة لهم ، لا أنهم هم الفاعلون كما هو المعتقد الحق في سائر الأفعال ، فإن السكين لا يقطع بنفسه بل القاطع هو الله تعالى ، والسكين سبب عادي خلق الله تعالى القطع عنده .

قال السبكي والقسطلاني في المواهب اللدنية ، والسمهودي في تاريخ المدينة ، وابن حجر في الجوهر المنظم: إن الاستغاثة به عليه الصلاة والسلام وبغيره من الأنبياء والصالحين إنما هي بمعنى التوسل إلى الله بجاههم ، والمستغيث يطلب من المستغاث به أن يجعل له الغوث ممن هو أعلى منه ، فالمستغاث به في الحقيقة هو الله تعالى ، والنبي صلى الله عليه وسلم واسطة بين المستغيث وبين المستغاث به الحقيقي، فالغوث منه تعالى إنما يكون خلقاً وإيجاداً ، والغوث من النبي عليه الصلاة والسلام إنما يكون تسبباً وكسباً وقد جوز أجلة العلماء الاستغاثة والتوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم ، ولا يعارض جوازها بخبر أبي بكر رضي الله عنه: (قوموا نستغيث

برسول الله من هذا المنافق) فقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنه لا يستغاث بي إنما يستغاث بالله) ، لأن من رواته ابن لهيعة والكلام فيه مشهور .

ولو فرضنا أن الحديث صحيح فهو من قبيل قوله تعالى: (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) . وقوله عليه الصلاة والسلام (ما أنا حملتكم ولكن الله حملكم) فيكون معنى الحديث السابق أني وإن يستغاث بي فالمستغاث به في الحقيقة هو الله تعالى .

وبالجملة ، فإطلاق لفظ الاستغاثة على من يحصل منه غوث ولو تسبباً وكسباً أمر نطقت به اللغة وجوزه الشرع ، فتعين تأويل الحديث المذكور ويؤيد ما بيناه في تأويله حديث البخاري في الشفاعة يوم القيامة: فبينما هم كذلك استغاثوا بآدم ثم بموسى ثم بمحمد صلى الله عليه وسلم.

لنا على جواز التوسل والاستغاثة: دلائل منها ، قوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة) قال ابن عباس: إن الوسيلة كل مايتقرب به إلى الله تعالى.

والوهابية جعلت الوسيلة خاصة بالأفعال وهو باطل ، بل ظاهر الآية تخصيصها بالذوات ، فإنه تعالى قال في هذه الآية (اتقوا الله) والتقوى عبارة عن فعل المأمور به وترك المنهي عنه ، فإذا فسرنا

الوسيلة بالأعمال ، كان الأمر بابتغاء الوسيلة إليه تأكيد للأمر بالتقوى ، بخلاف ما ذا أريد بها الذوات فإن الأمر حينئذ يكون تأسيساً وهو خير من التأكيد .

ومنها قوله تعالى: (أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب) قال ابن عباس: هم عيسى وأمه وعزيز والملائكة .

وتفسير الآية: إن الكفار يعبدون الأنبياء والملائكة على أنهم أربابهم ! فيقول الله لهم: أولئك الذين تعبدونهم هم يتوسلون إلى الله بمن هو أقرب فكيف تجعلونهم أرباباً وهم عبيد مفتقرون إلى ربهم متوسلون إليه بمن هو أعلى مقاماً منهم !

ومنها قوله تعالى: (ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لو جدوا الله تواباً رحيماً) فقد علق تعالى قبول استغفارهم باستغفاره عليه الصلاة والسلام .

وفي ذلك صريح دلالةعلى جواز التوسل به صلى الله عليه وسلم، وقبول المتوسل به كما يفهم من قوله تعالى: (لوجدوا الله تواباً رحيماً) وأنت تعلم أن استغفاره صلى الله عليه وسلم لأمته ، لا يتقيد بحال حياته كما دلت عليه الأحاديث الواردة مما سننقله .

لا يقال: إن الآية وردت في قوم معينين فلا عموم لها .

لأنا نقول: إنها وإن وردت في قوم معينين في حال حياته صلى الله عليه وسلم ، تعم بعموم العلة كل من وجد فيه ذلك الوصف ، سواء كان في حال حياته أو بعد موته صلى الله عليه وسلم .

ومنها قوله تعالى: (فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه) فنسب الله تعالى الاستغاثة إلى غيره من المخلوق ، وكفى به دليلاً على جوازها .

فإن قيل: إن المستغاث في هذه الآية حي ، وله قدرة ، وإنما كلامنا في الميت .

أجيب: بأن نسبة القدرة إليه إن كانت استقلالاً ، فهي كفر ، وإن كانت بقدرته تعالى على أن يكون هو السبب والوسيلة ليس إلا ، فلا فرق بين الحي والميت ، فإن الميت له كرامة ، وإذا لم تنسب الإغاثة إلى الله حقيقة، وإلى غيره مجازاً ، كانت الاستغاثة ممنوعة ، ومن هنا تعلم سر نفي النبي صلى الله عليه وسلم الاستغاثة عن نفسه عندما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه: قوموا نستغيث برسول الله من هذا المنافق ، فقالﷺ: لا يستغاث بي إنما يستغاث بالله .

مع أن النبي كان حينئذ حياً وله قدرة ، فإنما قصد صلى الله عليه وسلم نفي الاستغاثة الحقيقية، فأراد تعليم أمته أنها لا تكون إلا بالله.

ومنها قوله تعالى: (لا يملكون الشفاعة إلا من اتخذ عند

الرحمن عهدا) قال بعض المفسرين: إن العهد هو قوله لا إله إلا الله محمد رسول الله وعليه فمعنى الآية: لا يشفع الشافعون إلا لمن قال لا إله إلا الله ، وهم المؤمنون كقوله تعالى: (لا يشفعون إلا لمن ارتضى) وهو معنى بعيد أن يكون حينئذ تقدير الآية: لا يملكون الشفاعة لأحد إلا من اتخذ الخ . وفيه من التكلف ما فيه ، والأحسن أن يكون تفسير قوله لا يملكون بمعنى لا ينالون ، فحينئذ يصح الاستثناء بدون تقدير شئ .

وقيل معناه: لا يملك الشفاعة إلا من قال لا إله إلا الله ، أي لا يشفع إلا المؤمنون . ومثله قوله تعالى: (ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق) والشهادة بالحق هي قول لا إله إلا الله .

وحيث كان المراد من التوسل بالأنبياء والأولياء والصالحين والطلب منهم هو استشفاعهم ، وقد أخبر تعالى أنهم يملكون الشفاعة، فأي مانع من طلب شئ مما ملكوه بإذنه تعالى ، فيجوز أن تطلب منهم أن يعطوك مما أعطاهم الله تعالى ، وإنما الممنوع هو طلب الشفاعة من الأصنام ، التي لا تملك شيئاً منها .

ومنها ما رواه ابن ماجة بإسناد صحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه فقال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من خرج

من بيته إلى الصلاة فقال اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك وأسألك بحق ممشاي هذا إليك فإني لم أخرج أشرا ولا بطرا ولا رياء ولا سمعة خرجت اتقاء سخطك وابتغاء مرضاتك فأسألك أن تعيذني من النار وأن تغفر لي ذنوبي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت أقبل الله عليه بوجهه واستغفر له سبعون ألف ملك) فقد توسل النبي عليه الصلاة والسلام في قوله: إني أسألك بحق السائلين عليك بكل عبد مؤمن ، وأمر أصحابه أن يدعوا بهذا الدعاء فيتوسلوا مثل توسله ، ولم يزل السلف من التابعين ومن تبعهم يستعملون هذا الدعاء عند خروجهم إلى الصلاة ، ولم ينكر عليهم أحدا

ومنها: قوله صلى الله عليه وسلم: (اغفر لأمي فاطمة بنت أسد ووسع عليها مدخلها بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي) إلى آخر الحديث. رواه الطبراني في الكبير ، وصححه ابن حبان والحاكم ، عن أنس بن مالك رضي الله عنه . وفاطمة هذه أم علي كرم الله وجهه ، التي ربت النبي صلى الله عليه وسلم . وروى ابن أبي شيبة عن جابر مثل ذلك ، وروى مثله أيضاً ابن عبد البر عن ابن عباس ، رواه أبو نعيم في الحلية عن أنس كما ذكره الحافظ السيوطي في الجامع الكبير .

ومنها ما رواه الترمذي والنسائي والبيهقي والطبراني بإسناد صحيح عن عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه: أن رجلاً ضريراً أتى النبي صلى الله عليه وسلم فقال ادع الله أن يعافيني فقال: إن شئت دعوت وإن شئت صبرت وهو خير . قال فادعه ، فأمره أن يتوضأ ويحسن وضوءه ويدعو بهذا الدعاء: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة ، يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي لتقضى اللهم شفعه فيَّ . فعاد وقد أبصر . وخرج هذا الحديث البخاري أيضاً في تاريخه ، وابن ماجة ، والحاكم في المستدرك بإسناد صحيح ، وذكره الجلال السيوطي في الجامع الكبير والصغير، فقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم الرجل الضرير أن يناديه ويتوسل به إلى الله في قضاء حاجته .

قد تقول الوهابية: إن هذا إنما كان في حياة النبي صلى الله عليه وسلم ، فليس يدل على جواز التوسل به بعد موته .

فنجيب: أن الدعاء هذا قد استعمله الصحابة والتابعون أيضاً بعد وفاته صلى الله عليه وسلم لقضاء حوائجهم .

يدل عليه ما رواه الطبراني والبيهقي أن رجلاً كان يختلف إلى عثمان رضي الله عنه زمن خلافته في حاجة ولم يكن ينظر في حاجته، فشكى الرجل ذلك لعثمان بن حنيف فقال له: إئت الميضأة فتوضأ ثم إئت المسجد فصل ، ثم قل: اللهم إني أسألك وأتوجه

إليك بنبينا محمد نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربك لتقضي حاجتي وتذكر حاجتك ، فانطلق الرجل فصنع ذلك ثم أتى باب عثمان رضي الله عنه فجاءه البواب وأخذ بيده وأدخله على عثمان ، فأجلسه معه وقال: أذكر حاجتك ، فذكر حاجته فقضاها ، ثم قال له: ما كان لك من حاجة فاذكرها .

فلما خرج الرجل من عنده لقي ابن حنيف فقال له: جزاك الله خيراً ما كان ينظر في حاجتي حتى كلمته لي ، فقال ابن حنيف: والله ما كلمته ولكن شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد أتاه ضرير فشكى إليه ذهاب بصره.. الحديث .

فهذا توسل ونداء بعد وفاته صلى الله عليه وسلم !

على أن النبي عليه الصلاة والسلام حي في قبره ، فليست درجته دون درجة الشهداء الذين صرح الله تعالى بأنهم أحياء عند ربهم يرزقون .

ومنها: ما رواه البيهقي وابن أبي شيبة بإسناد صحيح: أن الناس أصابهم قحط في خلافة عمر رضي الله عنه فجاء بلال بن الحرث رضي الله عنه إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله استسق لأمتك ، فإنهم هلكوا فأتاه رسول الله في المنام وأخبره أنهم يسقون .

واستدلالنا هذا ليس بالرؤيا للنبي صلى الله عليه وسلم ، فإن رؤياه وإن كانت حقاً لا تثبت بها الأحكام ، لإمكان اشتباه الكلام على الرائي .

وإنما الاستدلال بفعل أحد أصحابه صلى الله عليه وسلم في اليقظة ، وهو بلال بن الحرث ، فإنه أتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم وناداه ، وطلب منه أنه يستسقي لأمته .

ومنها: ما ذكر في صحيح البخاري من رواية أنس بن مالك رضي الله عنه من استسقاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه في زمن خلافته بالعباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لما اشتد القحط عام الرمادة فسقوا .

وفي المواهب اللدنية للعلامة القسطلاني أن عمر رضي الله عنه لما استسقى بالعباس رضي الله عنه قال: يا أيها الناس إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرى للعباس ما يرى الولد الوالد ، فاقتدوا به في عمه العباس واتخذوه وسيلة إلى الله تعالى .

لا فرق في التوسل بالأنبياء وغيرهم من الصلحاء بين كونهم أحياءً أو أمواتاً لأنهم في كلا الحالتين لا يخلقون شيئاً ، وليس لهم تأثير في شئ ، وإنما الخلق والإيجاد والتأثير لله وحده لا شريك له في كل ذلك .

وأما من يعتقد التأثير للأحياء دون الأموات فلهم أن يفرقوا بين التوسل بهم والتوسل بالأموات !

أما نحن فنقول إن الله هو الخالق لكل شئ: (والله خلقكم وما تعملون) فالوهابية التي تتظاهر بالذب عن التوحيد وتجوز التوسل بالأحياء قد دخل الشرك في توحيدها من حيث لا تدري ، لكونها اعتقدت تأثير الأحياء مع أنه لا تأثير في الحقيقة إلا الله تعالى .

والتوسل والتشفع والاستغاثة بمآل واحد ، فإنما المقصود منها التبرك بذكر أحباء الله الذين قد يرحم الله العباد بسببهم ، سواء كانوا أحياءً أو أمواتاً فالموجد الحقيقي هو الله تعالى ، وإنما هؤلاء أسباب عادية ، لا تأثير لهم في ذلك .

وأما قوله العامي من المسلمين يا عبد القادر أدركني ، ويا بدوي المدد ، مثلاً ، فيحمل على المجاز العقلي كما يحمل عليه قول القائل هذا الطعام أشبعني، وهذا الماء أرواني ، وهذا الدواء شفاني ، فإن الطعام لا يشبع ، والماء لا يروي ، والدواء لا يشفي حقيقة ، بل المشبع والمروي والشافي الحقيقي هو الله تعالى وحده ، وإنما تلك أسباب عادية ينسب لها الفعل ، لما يرى من حصوله بعدها في الظاهر .

ومعظم الأمة أجمعوا على جواز التوسل به صلى الله عليه وسلم

وبغيره من الصحابة والصالحين ، فقد صدر من كثير من الصحابة والعلماء من السلف والخلف ، واجتماع أكثرهم على الحرام أو الإشراك لا يجوز ، لقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح، وقيل المتواتر: (لا تجتمع أمتي على ضلالة) ولقوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) فكيف تجتمع كلها أو أكثرها على ضلالة .

ومن أدلة جواز الاستغاثة: ما رواه البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر في قصة هاجر أم إسماعيل عليه السلام ، أنها لما أدركها وولدها العطش ، جعلت تسعى في طلب الماء فسمعت صوتاً ولاترى شخصاً فقالت: أغث إن كان عندك غوث !

فلو كانت الاستغاثة بغير الله شركاً لما طلبت الغوث ، ولما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك لأصحابه ، ولم ينكره ! ولما نقلته الصحابة من بعده وذكره المحدثون .

ومنها: ما رواه البخاري في حديث الشفاعة أن الخلق بينما هم في هول القيامة ، استغاثوا بآدم ثم بنوح ثم بإبراهيم ثم بموسى ثم بعيسى ، وكلهم يعتذرون ، ويقول عيسى إذهبوا إلى محمد فيأتون إليه صلى الله عليه وسلم فيقول (أنا لها) ، الحديث . فلو كانت

الاستغاثة بالمخلوق ممنوعة لما ذكرها النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه رضي الله عنهم .

وأجاب المانعون: أن هذا يكون يوم القيامة حيث يكون للنبي صلى الله عليه وسلم قدرة .

ورد عليهم: أنهم في حياتهم الدنيوية لا قدرة لهم إلا بنوع التسبب، فكذلك بعد الموت ، على أنهم أحياء في قبورهم يتسببون.

ومنها: ما رواه الطبراني عن زيد بن عقبة بن غدوان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (**إذا أضل أحدكم شيئا أو أراد عونا وهو بأرض ليس بها أنيس فليقل يا عباد الله أعينوني فإن لله عبادا لا يراهم**) .

لا يقال: إن المقصود بعباد الله هم الملائكة أو مسلمو الجن أو رجال الغيب وهؤلاء كلهم أحياء ، فلا يستدل بالحديث على الاستغاثة بالأموات، والكلام فيهم .

لأنا نقول: لاصراحة في الحديث بأن المقصود بعباد الله هم من ذكر لا غير، ولو سلمنا ، فالحديث حجة على الوهابية من جهة أخرى ، وهي نداء الغائب الذي لم يجوزوه كنداء الميت .

ولا يفيد الوهابية طعنها ببعض رواة هذا الحديث ، فإنه قد روى بطرق شتى يعضد بعضها بعضاً ، قد رواه الحاكم في صحيحه ، وأبو

عوانه ، والبزاز بسند صحيح عن البني صلى الله عليه وسلم ، بهذا اللفظ أنه قال: (إذا انفلتت دابة أحدكم بأرض فلاة فليناد يا عباد الله أحبسوا) .

وقد ذكر هذا الحديث شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه (الكلم الطيب) عن أبي عوانة في صحيحه . وابن القيم في (الكلم الطيب) له . والنووي في (الأذكار) والجزري في (الحصن الحصين) ، وغيرهم ممن لا يحصى من المحدثين .وهذا لفظ رواية ابن مسعود مرفوعاً، ورواية ابن مسعود موقوفاً عليه: فليناد أعينوني يا عباد الله . ونقل عن عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل أنه قال: سمعت أبي يقول: حججت خمس حجج فضللت في إحداهن عن الطريق وكنت ماشياً ، فجعلت أقول يا عباد الله دلونا على الطريق ، فلم أزل أقول ذلك ، حتى وقعت على الطريق .

فقل للوهابية التي تدعي نسبتها إلى الإمام أحمد: كيف جاز له أن يطلب الدلالة على الطريق من غير الله ، وهو غائب من غير أن يراه!

ومن شبه الوهابية في تكفير من استغاث أو نادى غائباً من نبي أو ولي قد مات: أن الذين ينادون نبياً أو ولياً مستغيثين به قد يكون نداؤهم في أماكن متعددة في زمان واحد ، ويكون عددهم كثيراً جداً مما يبلغ مئات الألوف وهم يعتقدون أن المستغاث به يحضر

حين ندائه في ذلك الآن ، وهذا بصرف النظر عن كونه كفراً وشركاً لما فيه من جعل ذلك المنادى موصوفاً بما هو من صفات الرب عز وجل ، ممتنع عقلاً ، فمن البديهي أن الجسم الواحد لا يكون في زمان واحد موجوداً في أماكن متعددة .

والجواب: أنه ليس من معتقد المسلمين حضور المنادى بشخصه حين ندائه في الأماكن المتعددة ، فإن ذلك المعتقد كفر ، وذلك الحضور محال ، وإنما المعتقد حضور البركة بخلق الله تعالى إياها في تلك الأماكن المتعددة ، لطفاً منه ورحمة بالمستغيث ، لكرامة المستغاث به .

وليس في ذلك محال ، فإن رحمة الله تعالى واسعة ليس لها حد .

ثم إن الوهابية لما رمت المسلمين بهذا المعتقد الذي هم براء منه، ساقت على بطلانه ما ذكره الفقهاء في شرائط النكاح ، وذلك أنهم قالوا تزوج رجل امرأة بشهادة الله ورسوله لا ينعقد النكاح ، وقالت لو كان النبي يعلم نداء المستغيث به إذا ناداه من بعيد لكان علام الغيوب ، ولصح انعقاد النكاح الذي قال الفقهاء ببطلانه .

والجواب: إن المسلمين كما لا يعتقدون أن النبي أو الولي المستغاث به يحضر عند ندائه ، كذلك لا يرون علم الغيب لأحد إلا الله تعالى .

وأما عدم انعقاد النكاح بشهادة الله ورسوله ، فلأن الشرع إنما اشترط شهادة الشهود في النكاح وأمثاله صيانة لحقوق الزوجية ، لما عسى أن يحدث بين الزوجين من المنازعات التي ربما آلت بهما إلى الترافع أمام الحكام ، وحينئذ لا يمكن لأحد الخصمين أن يثبت دعواه بشهادة الله ورسوله .

إذ نحن لو فرضنا أن الله تعالى عما يقول الظالمون جسم ينزل إلى السماء الدنيا كما زعمت الوهابية ، نقول ما جرت عادته تعالى أن ينزل إلى غرفة الحاكم فيؤدي شهادته أمامه حسماً لنزاع المخاصمين .

○ ○

الوهابية وتكفيرها من ينادي يارسول الله

قد علمت أن الوهابية كفرت من نادى غير الله تعالى كقوله: يا رسول الله ونحو ذلك.

ونحن إذا أمعنا النظر رأينا أن كفر هذا الذي يقول يا رسول الله مثلاً لا يخلو إما أن يكون لأنه يعتقد أن من ناداه يحضر بنفسه حين ندائه ويسمع نداءه ويقضي بنفسه له حاجته وينجيه من الورطة التي ناداه من أجلها، أو يكون لأنه يعتقد أن الذي يناديه يسمع نداءه بإسماع الله إياه بمحض قدرته، وأن الله تعالى لا غيره يقضي حاجته ببركة ذلك المنادى، وأن الله تعالى ينجيه من الورطة التي هو فيها بجاه ذلك النبي.

وعلى كلا التقديرين ففيه من السقط ما فيه:

أما الأول فلأن من اعتقد أن أحداً غير الله تعالى يقضي الحاجة وينجي من الورطة فقد كفر، سواء نادى ذلك الأحد أو لم يناده، فلا وجه لتخصيص كفره بحالة النداء، وأنت تعلم أن لا أحد من المسلمين يعتقد هذا المعتقد.

وأما الثاني، فلأن من كان قلبه عرية الإيمان معتقداً أن الذي يقضي الحوائج وينجي من المهالك إنما هو الله تعالى لا غيره، لا يجوز أن يكون كافراً بمجرد نداء غائب معتقداً أن الله تعالى يخلق

فيه السماع .

ومن الجهل ما قالته الوهابية هنا من أن الشرع يحكم بالظاهر ، والظاهر من نداء أحد لغير الله أنه يعتقد في ذلك الغير علماً محيطاً بالغيب وقدرة بالغة على قضاء الحوائج، وتصرفاً تاماً في الكون مما هو مختص بالباري عز وجل ويكون اعتقاده في غيره كفراً وشركاً.

والجواب: أن الظاهر من حال من نادى غير الله تعالى يدل على أنه نادى غير الله فقط ، لا أنه اعتقد في ذلك الغير قدرة وقضاء للحوائج وغير ذلك ، مما ذكرته الوهابية. والاعتقاد أمر باطني قد يدل بعض الظواهر عليه، لكن النداء ليس من قبيلها .

فقل للوهابية التي تجعل ظاهر النداء دالاً على الشرك والكفر:

ما بالكم لا تنظرون إلى ما للمسلم الذي تكفرونه من ظاهر الصلاة والصوم والزكاة وغير ذلك من أركان الدين فتعدونه دالاً على إيمانه وحسن اعتقاده؟!

ومن العجيب أن ذلك المسلم الذي ينادي يصرح بعدم اعتقاده القدرة وما شاكلها لمن ناداه ، وأنتم مع ذلك تجعلون ظاهر ندائه دالاً على ذلك الإعتقاد الذي نفاه عن نفسه .

فليت شعري أي حكم لاستدلالكم بظاهر نداء الرجل على سوء اعتقاده في مقابلة تصريحه لكم بحسن ما يعتقده .

○ ○

الوهابية وتكفيرها من زار القبور

لو سأل سائل عما تمذهبت به الوهابية ما هو؟ وعن غايته ما هي؟ لقلنا في جواب كلا السؤالين: هو تكفير كافة المسلمين، ولكان جوابنا على اختصاره تعريفاً كافياً لمذهبها! فإن من أمعن النظر فيما جاءت به رآها تتحرى في كل مسألة تكفير كافة المسلمين، الذين رضي الله لهم الإسلام ديناً! فقد كفرتهم لتنزيههم الله تعالى عن الجسمية وكفرتهم لأخذهم بالإجماع، وكفرتهم لتقليدهم الأئمة المجتهدين في الدين، وكفرتهم لاستشفاعهم بنبيهم صلى الله عليه وسلم بعد موته وتوسلهم به إلى الله تعالى، وكفرتهم لزيارتهم القبور.

لا يخفى على البصير أن زائر القبور يقصد بزيارتها، إما الاستشفاع والتوسل إلى الله بأصحابها، والتبرك بهم كما في زيارة قبور الأنبياء والأولياء.

وإما الإعتبار بالقوم الماضين تمكيناً للخشوع من قبله، ونيلاً للأجر بقراءة الفاتحة والدعاء لهم بالمغفرة، كما في زيارة قبور سائر المسلمين.

أو يقصد تذكر من مات من ذويه الأقربين، وأحبائه الراحلين،

وأعزته الذين غالتهم يد المنون فأسكنتهم القبور بعد القصور ، فذهبوا عنه ذهاباً ليس وراءه إياب ، وغادروه كئيباً يندب الأسى ولسان حاله يقول:

ألا يا راحلاً عنا مجداً على مهل فديتك من مجد
فلا تعجل وسر سير الهوينا لأنك راحلٌ من غير عود

وتدفعه إحساساته إلى زيارة قبورهم ، فيقف على دوارس أجداثهم حزيناً يسكب على ترابها عبرات الأسف ، ولسان حاله ينشدك

ذهب الذين أحبهم وبقيت مثل السيف فردا
كم من أخ لي صالح بوأته بيديَّ لحدا

وليس في كل هذا ما يستلزم تكفير المسلم الذي شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، ولا أظن أن الجاهل الغر من أناس ، فضلاً عن العالم المتشرع ، تدفعه جهالته أن يقصد بزيارة القبر عبادته ، وأن يعتقد كونه يقضي حاجته ، فيخلق له ما يريد !

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**إني كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنها تزهد الدنيا وتذكر الآخرة**) رواه ابن ماجة ، كما في المشكاة .

أما شد الرحال إلى زيارة القبور ، فمما اختلف فيه العلماء فحرمه بعضهم استدلالا بقوله عليه الصلاةوالسلام: (**لا تشد الرحال إلا**

إلى ثلاثة مساجد إلى المسجد الحرام وإلى مسجدي هذا وإلى المسجد الأقصى) رواه الشيخان والترمذي .

واختار التحريم القاضي حسين والقاضي عياض ، وجوزه آخرون منهم إمام الحرمين وغيره من المشايخ ، واستدلوا على الجواز بقوله عليه الصلاة والسلام: **(كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها)** فقالوا قد أمر النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث بزيارة القبور ، لم يفرق بين زيارة القريب منها والبعيد ، الذي تشد إليه الرحال ، قالوا: وأما حديث **(لا تعمل المطي إلا إلى ثلاثة مساجد)** فإنما منع فيه شد الرحال إلى المساجد لا إلى المشاهد كما هو الصريح منه ، وإنما منع عن شد الرحال إلى المساجد لأنها متماثلة ، فلا يخلو بلد من مسجد ، فلا حاجة إلى الرحلة. وليست كذلك المشاهد ، فإنها غير متساوية في البركة ، كما أن درجات أصحابها متفاوتة عند الله تعالى .

ولا شك أن الاستثناء في قوله إلا إلى ثلاثة مساجد مفرغ ، فيكون تقديره: إما بالجنس البعيد كأن يقال لا تشد الرحال إلى موضع إلا إلى ثلاثة مساجد ، وعليه فيلزم منع السفر إلى كل موضع عدا المستثنى ، فيحرم حينئذ شد الرحل حتى للجهاد وللتجارة وطلب الرزق واقتناء العلم وللنزهة وغير ذلك! وليس الامر كذلك. وإما

بالجنس القريب كأن يقال: لا تشد الرحال إلى مسجد إلا إلى ثلاثة مساجد ، وهذا هو الصحيح ، وعليه فيكون الحديث خاصاً بمنع شد الرحال إلى المساجد فقط .

ويدل على جواز شد الرحال لزيارة القبور ما قاله عمر رضي الله عنه بعد فتح الشام لكعب الأحبار: يا كعب ألا تريد أن تأتي معنا إلى المدينة فتزور سيد المرسلين؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين أنا أفعل ذلك .

وكذا يدل عليه مجيء بلال رضي الله عنه من الشام إلى المدينة لزيارة قبره عليه الصلاة والسلام ، وذلك في خلافة عمر رضي الله عنه .

ومن القائلين بالجواز الإمام النووي والقسطلاني والإمام الغزالي ، فقد قال في إحيائه بعد أن ذكر حديث: لا تشد الرحال / ما ملخصه: استدل به بعضهم على المنع من الرحلة لزيارة المشاهد، ويتبين لي أن الأمر ليس كذلك ، بل الزيارة مأمور بها بخبر: (كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها) والحديث إنما ورد نهياً عن الشد لغير الثلاثة من المساجد لتماثلها ، ولا بلد إلا فيها مسجد، فلا حاجة للرحلة إلى مسجد آخر .

وأما المشاهد فتتفاوت بركة زيارتها على قدر درجاتهم عند الله .

وأما كون الأموات يسمعون أو لا يسمعون ، فنقول فيه:

من المعلوم أن سماع الأحياء إنما هو في الحقيقة للروح ، وإنما الأذن آلة له ليس إلا وحيث أن الميت لا تفنى روحه بفناء جسده ، فلا يبعد أن تسمع روحه .

لا يقال: إنها لا تسمع لفقد آلة السماع منها بدثور الجسد .

لأنا نقول: إنها قد تسمع بدون تلك الآلة ، كما في الرؤيا ، فإن الروح تكلم وتسمع في منامها ، كما تبصر فيه من غير وساطة آلة من حواسها ، فهل يستبعد العاقل بعد أن يسمع ويبصر في منامه ، مع علمه أن ذلك بمجرد روحه من دون أن يكون لحواسه أدنى دخل وتسبب ، أن الروح بعد تجردها من الجسد تكون سامعة مبصرة بدون آلة السمع والبصر .

على أن الوهابية لا يسعها نفي سماع الشهداء الذين ثبت كونهم أحياء : لقوله تعالى: (**ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون**) . ومما لا ريب فيه أن درجة الأنبياء ليست دون درجة الشهداء ، فهم مثلهم أحياء عند ربهم يرزقون .

وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (**مررت بموسى ليلة أسري بي وهو قائم يصلي في قبره**) .

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:

(**الأنبياء أحياء في قبورهم**) رواه الموصلي والبزار.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: (**رأيت عيسى وموسى وإبراهيم عليهم الصلاة والسلام**) رواه الشيخان ومالك في الموطأ .

وروى أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقي في شعب الإيمان ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (**من صلى علي عند قبري سمعته ومن صلى علي نائياً أبلغته**) .

فإذا ثبت أن الأنبياء أحياء ثبت لهم السماع الذي هو من لوازم الحياة.

لا يقال: إن حياة الأنبياء والشهداء البرزخية غير الحياة الدنيوية ، فلا تنطبق هذه على تلك .

لأنا نقول: لو سلمنا أن تلك الحياة ليست من نوع الحياة الدنيا ، فمجرد ثبوت الحياة لهم أي حياة كانت كاف لثبوت السماع لهم ، وجواز التوسل والاستغاثة بهم .

على أن آلة السماع في الأنبياء لا تنعدم بالموت ، لأن أجسادهم لا تبلى فقد ورد في الحديث الشريف أنه حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء .

ولو أرخينا العنان فصدقنا أن أجسادهم تبلى في قبورهم كما

تزعمه الوهابية وقد ثبتت لهم الحياة وأنهم يرزقون ، لكان ذلك مثبتاً لسماعهم بدون آلة على الوجه الذي بيناه آنفاً .

وأما غير الأنبياء والشهداء من الأموات ، فقد ورد في الأحاديث ما يدل على سماعهم . روى البخاري ومسلم وأصحاب السنن من حديث ابن عمر قال: (اطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم على أهل القليب فقال: وجدتم ما وعدكم ربكم حقاً) فقيل له أتدعو أمواتاً؟ فقال (ما أنتم بأسمع منهم ولكن لا يجيبون) .

وفي الصحيحين من حديث أنس عن أبي طلحة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ناداهم (يا أبا جهل بن هشام يا أمية بن خلف يا عتبة بن ربيعة أليس قد وجدتم ما وعد ربكم حقاً فإني قد وجدت ما وعدني ربي حقاً) فقال له عمر: يا رسول الله كيف تكلم أجساداً لا أرواح فيها ؟ قال: (والذي نفسي بيده ما أنتم بأسمع لما أقول فيها منهم) .

وكذلك قد ثبت في الصحيحين عن أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال (إن العبد إذا وضع في قبره وتولى عنه أصحابه ليسمع قرع نعالهم).

وذكر الإصبهاني بإسناده عن عبيد بن مرزوق قال: كانت امرأة بالمدينة يقال لها أم محجن تقمُّ المسجد فماتت ، فلم يعلم النبي

صلى الله عليه وسلم فمر على قبرها فقال: ما هذا؟ فقالوا أم محجن . قال: التي كانت تقم المسجد؟ قالوا: نعم ، فصف الناس فصلى عليها ، ثم قال (أي العمل وجدت أفضل؟) قالوا: يا رسول الله أتسمع ؟ قال: (ما أنتم بأسمع منها) ، فذكر أنها أجابته . وهذا الحديث مرسل ، إلى غير ذلك من الأحاديث .

وأما ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها لما سمعت حديث سماع الأموات أنكرته وقالت كيف يقول عليه الصلاة والسلام ذلك ، وقد قال الله تعالى: (وما أنت بمسمع من في القبور) فهو لعدم ثبوت ذلك عندها ، كما نقل ذلك عن ابن تيمية في بعض فتاواه .

وغيرها لا يكون معذوراً مثلها ، لأن هذه المسألة معلومة من الدين بالضرورة لا يجوز لأحد إنكارها .

على أن عائشة رضي الله عنها قد روت عن النبي صلى الله عليه وسلم كما ذكره ابن رجب في أهوال القبور أنه قال: (إنهم ليعلمون الآن أن ما قلت لهم حق) وروايتها هذه تؤيد رواية من روى أنهم يسمعون ؛ فإن الميت إذا جاز أن يعلم جاز أن يسمع ، فيلزم من إثبات العلم لهم إثبات السماع أيضاً ضرورة .

وأما قوله تعالى: (وما أنت بمسمع من في القبور) وقوله تعالى

(إنك لا تسمع الموتى ولا تسمع الصم الدعاء إذا ما ينذرون) فليس فيه دلالة على نفي مطلق السماع عن الموتى ، وإنما يدل على نفي السماع الذي ينتفع به وذلك لأن المراد بمن في القبور في الآية الأولى، وبالموتى في الآية الثانية إنما هم الكفار ، تشبيهاً لهم بمن في القبور من الموتى ، فكما أن الموتى لا يسمعون سماعاً نافعاً، وهو السماع الذي يتم به التخاطب بين السامع والمسموع منه، كذلك الكفار لا يسمعون ما يلقيه النبي صلى الله عليه وسلم عليهم من الآيات في إنذارهم سماعاً نافعاً يهتدون به إلى الإيمان .

وإلا فمطلق السماع ثابت للكفار ، فإنهم يسمعون ما يقوله النبي لهم ولكنهم لا ينتفعون بما يسمعونه ، ويؤيد هذا قوله تعالى: **(ولو علم الله فيهم خيرا لا سمعهم ولو أسمعهم لتولوا)** فإن المراد بالسماع في قوله لأسمعهم هو السماع النافع ، وفي قوله ولو أسمعهم هو السماع غير النافع ، وإلا لفسد المعنى ، إذ تكون الآية حينئذ قياساً تكرر فيه الحد الأوسط ، فينتج برفعنا الحد الأوسط أنه لو علم الله فيهم خيراً لتولوا ، وهذا محال كما ترى ، إذ يلزم أن يقع منهم التولي الذي هو شر مع علم الله الخير فيهم ، فيكون علم الله جهلاً ، تعالى عن ذلك علوا كبيراً .

وفي الآيتين السابقتين مخرج ثان وهو أن المراد بالإسماع المنفي

فيهما هو إسماع الهداية ، كما يدل عليه مساق الآيتين ، فيكون المعنى إنك لاتهدي بنفسك الكفار لأنهم كالموتى ، وأنت لا تسمع بنفسك الموتى ، وإنما المسمع إياهم هو الله تعالى . وهذا كما في قوله تعالى: (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) .

لا يقال: إنه كما أن مسمع الموتى في الحقيقة هو الله تعالى ، كذلك أن مسمع الأحياء في الحقيقة ليس غيره ، لأن الله تعالى هو الخالق لجميع الأفعال كما هو المذهب الحق ، فما وجه التمثيل بالموتى؟

لأنا نقول: أما أولاً فإن كون الله تعالى وحده هو المسمع للموتى أمرٌ لا يلتبس حتى على العامي . وأما كونه تعالى هو المسمع للأحياء في الحقيقة فليس كذلك لأنه قد يظن أن المسمع للمخاطب هو المتكلم ؛ لما يرى من أن سماع المخاطب يعقب الصوت الخارج من فم المتكلم ؛ فلا يكون التمثيل بالأحياء لائقاً ، وذلك لأن التمثيل يقتضي أن يكون الممثل به واضحاً أمره ، وهو في الأحياء ليس كذلك كما بيناه .

وأما ثانياً ، فإن الكفار لما كانوا أحياء فتمثيلهم في عدم إسماع النبي إياهم بالأحياء في عدم إسماعه إياهم أيضاً ، قريب من تشبيه الشئ بنفسه ، فيكاد يكون من قبيل قول الشاعر:

كأننا والماء من حولنا   قوم جلوس حولهم ماء

أجابت الوهابية عن حديث أهل القليب بأن سماع الموتى حين سؤال النبي صلى الله عليه وسلم إياهم كان معجزة له ، فلا يدل أنهم يسمعون كلام غيره أيضاً .

والجواب: أن المعجزة لا تكون معجزة إلا إذا ظهرت لغير مظهرها ، كتكلم الحصى ، فإن الصحابة رضي الله عنهم كانوا يسمعون صوت تسبيحه في كفه صلى الله عليه وسلم ، ولا يمكن هاهنا أن يكون سماع الأموات كلام النبي صلى الله عليه وسلم معجزة ، لأنه لم يظهر لغيره صلى الله عليه وسلم .

وأيضاً: ينافي كون ذلك معجزة ، حديث أنه ليسمع قرع نعالهم ؛ فإنه يدل على أنهم يسمعون كلام غير النبي أيضاً.

وأجابت الوهابية أيضاً: بأن المقصود من تكليم النبي للموتى هو وعظ الأحياء لا إفهام الموتى .

والجواب: أنه لو كان المقصود بتكليمه عليه الصلاة والسلام هو وعظ الأحياء لما سأله عمر رضي الله عنه: كيف تكلم أجساداً لا أرواح فيها ؟ متعجباً من تكليمه إياهم .

ولا أظن أن الوهابية يدفعها السفه أن تعتقد أنها فهمت بعد ألف ونيف من السنين مراد النبي صلى الله عليه وسلم أكثر من صاحبه عمر رضي الله عنه! وأيضاً: ينافي كون المقصود بذلك هو الوعظ

جواب النبي صلى الله عليه وسلم لعمر بقوله: ما أنتم بأسمع منهم ، فإن جوابه هذا لا يصلح أن يكون وعظاً بل هو صريح رد على استبعاد عمر وتعجبه من ذلك كما لا يخفى.

وأجابت الوهابية أن النبي عليه الصلاة والسلام إنما كلم الأموات اعتقاداً منه أنهم يسمعون ، فنزلت الآيتان تصحيحاً لاعتقاده !

والجواب: أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يجوز أن يعتقد مثل ذلك من تلقاء نفسه ، بل لا بد أن يكون بوحي وإلهام من ربه ، فقد قال تعالى: (وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى) سيما وإن الأمر ليس مما يتوصل الإنسان إلى معرفته بمجرد عقله ، بل هو مما ينافي العقل في الظاهر ، فلا تمكن معرفته إلا بالنقل ، وذلك بطريق الوحي أو الإلهام ، كما أبنا .

ومن الأدلة على أن الله تعالى يحيي الموتى في قبورهم فيسمعون، قوله تعالى حكاية على سبيل التصديق: (ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) فالمراد بإحدى الإماتتين الإماتة قبل مزار القبور وبالأخرى الإماتة بعد مزار القبور ، فإنهم لو لم يحيون في القبور ثانية ما صحت إماتتهم ثانية .

وأما جواب الوهابية: أن الإماتة الأولى هي حال العدم قبل الخلق والثانية الإماتة بعد الخلق ، فمما يضحك الصبيان ، لأن الإماتة لا

تكون إلا بعد الحياة ولا حياة قبل أن يخلق الله الحياة .

وأما جوابها: أن الإماتة الأولى هي إماتة الناس بعد حياتهم في عالم الذر فهو أوهن من جوابها الأول ، لأن الناس في عالم الذر لم يكونوا غير أرواح خلقها الله تعالى فسألهم ألست بربكم فأجابوا قائلين بلى . وأنت تعلم أن الموت عبارة عن مفارقة الروح للجسد ، وحيث لا جسد فلا موت .

نعم يجوز أن يفني الله الأرواح بعد خلقها في عالم الذر ، ولكن ذلك ليس من الموت في شئ لما تقدم .

واستدلت الوهابية على عدم سماع الموتى: بالحكم الشرعي الذي أطبق العلماء عليه من أن الرجل لو قال إن كلمت فلاناً فامرأتي طالق أو أمتي حرة وكلمة ميتاً لا يقع الطلاق ولا العتق ، قالوا: وهذا مبني على عدم سماع الميت عندهم .

والجواب: لا نسلم أنه مبني على عدم سماع الميت عندهم ، بل هو مبني على ما يعرفون من أن العادة جارية بتقييد مثل تلك اليمين بالحياة .

على أن فائدة الكلام هو حصول التخاطب / وحيث أن التخاطب لا يتم مع الميت فالكلام معه لا يكون كلاماً إذ لا قدرة فيه على الجواب ، لا لأنه لا يسمع الكلام .

○ ○

الوهابية وتكفيرها الحالف بغير الله والناذر والذابح

قاتل الله الوهابية إنها تتحرى في كل أمر أسباب تكفير المسلمين، ممايثبت أن همها الأكبر هو تكفيرهم لا غير !

فتراها تكفر من يتوسل إلى الله تعالى بنبيه صلى الله عليه وسلم ويستعين باستشفاعه إلى الله تعالى على قضاء حوائجه .

وهي لا تخجل إذ تستعين بدولة الكفر على قضاء حاجتها التي هي قهر المسلمين وحربهم وشق عصاهم والمروق عن طاعة أمير المؤمنين ، الذي أمر الله تعالى في كتابه المبين بلزوم طاعته كما بسطناه في مقدمات الرسالة! وتتخذ أعداء الدين أولياء تستمد منهم في إحضار القوى التي تسعى بها إلى الفساد ، وتلج بها في الغواية والعناد ، وقال الله تعالى: (**يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء**) !

سحقاً للوهابية إنها لا تدري أن أولئك الأولياء الذين تتخذهم ذريعة لقهر المسلمين ، إذا ثبت قدمهم فإنهم يقهرونها ويهتضمونها أيضاً ، مع من تعده خصماً مخالفاً لمذهبها مر غير مرة !!

إن ديدن الوهابية تكفير كافة المسلمين بكل أمر ، فهي تكفرهم

لتوسلهم بجاه الأنبياء والأولياء ، وندائهم ، وتكفرهم بالحلف بغير الله ، والنذر لذلك الغير ، والذبح له .

ولو سلمنا أن في بعض الأقوال التي تنسبها الوهابية إلى المسلمين كفراً يصح أن يقال فيه إن قائل هذا القول يكفر لما صح أن تكفر جميع الأمة أو تكفر شخصاً معيناً قال ذلك القول ، فقد يكون القائل لم تبلغه النصوص الموجبة لمعرفة الحق ، أو لم تثبت عنده ، أو لم يتمكن من معرفتها وفهمها أو يكون قد عرضت له شبهات يعذره الله تعالى فيها . فالذي يؤمن بالله ورسوله فإن الله قد يغفر له برحمته بعض الذنوب القولية والعملية .

وأما ما نزل من الآيات في التشديد على مقترفي تلك الذنوب فهي للوعيد كقوله تعالى: **(ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها) وقوله تعالى (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا) وقوله تعالى (ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها)** إلى غير ذلك من الآيات .

قال ابن القيم في مدارج السالكين ما ملخصه: إن أهل السنة متفقون على أن الشخص الواحد قد يكون فيه ولاية لله تعالى وعداوة من وجهين مختلفين ، وقد يكون فيه إيمان ونفاق وإيمان

وكفر ، ويكون أحدهما أقرب إليه من الآخر ، فيكون من أهله قال الله تعالى: (هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان) هذا والشرك قسمان: خفي وجلي ، فالخفي قد يغفر والجلي لا يغفر إلا بالتوبة.

أما الحلف بغير الله تعالى فلا يخرج مرتكبه عن الإسلام فإنه وإن ورد من حديث ابن عمر أنه: (من حلف بغير الله فقد أشرك) وفي رواية: (من حلف بغير الله فقد كفر) قد حمله أئمة الحديث من شافعية وحنفية وحنابلة ومالكية على أن المقصود به كفر النعمة والشرك الخفي كالشرك الحاصل بالرياء ، وذلك لا يخرج عن الإسلام، إنما يحبط العمل فقط ، كما وقع عليه الإجماع، حتى أن أصحاب الشافعي قالوا بأنه مكروه تنزيهاً لا تحريماً ، فالحلف الذي قد اختلف فيه العلماء أنه مكروه أو حرام ، لا يجوز أن يقال في مرتكبه أنه كافر خارج عن الإسلام .

وأما النذر لغير الله فقد صرح الشيخ تقي الدين ابن تيمية وابن القيم وهما من أعظم من شدد فيه بعدم جوازه وكونه معصية ، لا أنه كفر وشرك مخرج عن الإسلام ، فلا يجوز الوفاء به ولو تصدق بما نذر من ذلك على من يستحقه من الفقراء كان خيراً له عند الله.

فلو كان الناذر لغير الله كافراً لما أمراه بالصدقة ، لأن الصدقة لا تقبل من الكافر ، بل أمراه بتجديد إسلامه .

وأما الذبح لغير الله فقد ذكره ابن القيم في المحرمات ، لا في المكفرات إلا إذا ذبح لما عبد من دون الله ، وكذلك أهل العلم ذكروا أنه مما أُهِلَّ به لغير الله ، ولم يكفروا صاحبه .

لقد تم ما أردت تنميقه في هذه العجالة ، منعاً لاتساع المذهب الوهابي وانتشاره في بغداد وما جاورها من البلاد، كي يتضح الحق لعين القارئ وينجلي له الصواب، فلا يغير بما نشرته هذه الفرقة المارقة ، وموهت به على البسطاء والجاهلين . وقد ساعدني في تأليفها وتنميقها حضرة أخي وصاحبي العلامة معروف أفندي الرصافي ، دام في حفظ الباري .

والحمد لله أولاً وآخراً .

الفقير إليه تعالى: زهاوي زاده جميل صدقي

بغداد في غرة رمضان سنة ١٣٢٢ هجرية

فهرس الموضوعات



دار الصديق الأكبر

المكتبة التخصصية للرد على الوهابية